

سموتَ إلى العليا بغير مشقة فنلت ذراها لا ذليلاً ولا وُعلاً^(١)

ونظر إليه معاوية يوماً يتكلم معه ، فأتبعه بصره ، فقال متمثلاً :

إذا قال لم يترك مقالاً لقائلٍ مصيب ولم يثن اللسان على هُجْرٍ
يصرِّف بالقول اللسان إذا انتحى وينظر في أعطافه نظرَ الصَّقرِ

وروى أن طائراً أبيض خرج من قبره ، فتأولوه علمه خرج إلى الناس .

وقيل : دخل قبره طائر أبيض ، فقيل : هو بصره .

وقال أبو الزبير : مات ابن عباس رضي الله عنهما بالطائف ، فجاء طائر

أبيض فدخل في نعشه حين حُل ، فمارئى خارجاً منه .

وفضائله كثيرة مشهورة ، فلنقف منها على هذا القدر .

[ذكر إياس القاضي]

وأما إياس ، فهو أبو وائلة بن معاوية بن قرّة بن إياس بن هلال بن رباب المزنيّ ، قاضي البصرة . وسبب قضائه أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كتب إلى عدى بن أرطاة عامله على البصرة ؛ أن اجمع إياس بن معاوية المزنيّ والقاسم ابن ربيعة الحارثيّ ، فولّ القضاء أنذهما وأقهما . فجمع بينهما ، فقال كل واحد : إن صاحبه أنفذ وأقّه ، فقال له إياس : سلّ عنّي وعن القاسم فقيهيّ المصر : الحسن وابن سيرين - وكان القاسم يأتيهما وإياس لا يأتيهما - فعلم القاسم أنه إن سألهما أشارا به . فقال القاسم : لا تسأل عنّي ولا عنه ؛ فوالله الذي لا إله إلا هو ؛ إن إياساً لأقّه منّي ، فإن كنت كاذباً فما عليك إلا ألا توليّي

(١) الوغل من الرجال : الضعيف الساقط .

وأنا كاذب، وإن كنت صادقاً فينبغي لك أن تقبل قولي. فقال له إياس: إنك جئت برجل، فوقفته على شفير جهنم، فنجى نفسه منها بيمين كاذبة يستغفر الله منها، وينجو مما يخاف، فقال له عدى: أما إنك إذ فهمتها فأنت لها؛ فاستغواه. وقال إياس رحمه الله: أرسل إلى ابن هبيرة فأتيته، فسألني فسكت، فلما أطلت قال: هيه! قلت: سل عما بدا لك، قال: أتقرأ القرآن؟ قلت: نعم، قال: أتفرض الفرائض؟ قلت: نعم، قال: أتعرف من أيام العرب شيئاً؟ قلت: نعم، قال: أتعرف من أيام العجم شيئاً؟ قلت: أنا بها أعرف، قال: إني أريد أن أستعين بك على عملي، قلت: إن في خصالاً ثلاثاً لا أصلح معها للعمل، قال: ما هي؟ قلت: أنا دميم كما ترى، وأنا عيى، وأنا حديد، قال: أما دمامتك فإني لا أريد أن أحاسن بك الناس، وأما العيى فإني أراك تُعرب عن نفسك، وأما الحدة فإن السوط يقوّمك، قم. فولاني القضاء، وأعطاني عشرة آلاف درهم، فهي أول مالٍ تمولته.

ودخل عليه عدى بن أرطاة في مجلس القضاء - وعدى أمير البصرة، وكان أعرابى الطبع - فقال: يا هناه، أين أنت؟ قال: بينك وبين الخائط، قال: فاسمع مني، قال: للاستماع جلست، قال: إني تزوجت امرأة، قال: بالرّفاء والبنين، قال: وشرطت لأهلها ألا أخرجها من بينهم، قال: أوف لهم بالشرط، قال: فأنا أريد الخروج، قال: في حفظ الله، قال: فاقض بيننا، قال: قد فعلت، قال: فبم تحكم؟ قال: بألا تخرجها، قال: بشهادة من؟ قال: بشهادة ابن أخت خالتك.

وأول ما ظهر من ذكائه، أنه دخل دمشق، وهو غلام، فتحاكم مع شيخ عند قاضيا، فصال إياس بحديثه على الشيخ، فقال له القاضي: إنه شيخ كبير، فخذض كلامك، فقال له إياس: الحق أكبر منه، فقال له القاضي:

اسكت ، فقال : وَمَنْ يَنْطِقُ بِحَجَّتِي ؟ فقال له القاضي : ما أراك تقول حقًا ، فقال إياس : لا إله إلا الله ، أحقُّ هذا أم باطل ؟ فدخل القاضي من فوره إلى عبد الملك بن مروان ، فأعلمه بما رأى من ذكائه ، فقال له عبد الملك : اخرج فاحكم بينهما ، وأخرجهُ الآن من دمشق إلى بلاده لئلاَّ يُفسد على أهل الشام .

ولما دخل عبد الملك البصرة رأى إياساً وهو صبيّ ، وخلفه أربعة من القراء أصحاب الطيالة ، وإياس يقدمهم ، فقال عبد الملك : أفٍ لهذه العنانين ؛ أما فيهم شيخٌ يقدمهم غير هذا الحدّث ! ثمّ التفت إليه ، وقال : كم سنك ؟ فقال : سنّي - أطال الله بقاء الأمير - سنُّ أسامة بن زيد بن حارثة حين ولّاه رسول الله صلى الله عليه وسلم جيشاً فيهم أبو بكر وعمر ؛ فقال : تقدّم بارك الله فيك ، وكان سنّه سبع عشرة سنة .

وأما ذكاؤه وفراسته ، فقد ألف في ذلك اللدائني كتاباً سمّاه كتاب «زكّن إياس» ، والزكّن : التشبيه ، يقال : زكّن عليهم وزكّم : شبّه وخيّل ، وقيل : الزكّن : الظنّ والتفرّس . ومن زكّنه أنه اختصم إليه رجلان في قطيفتين : حمراء وخضراء ، فقال أحدهما : دخلت الحوضَ لأغتسل ووضعت قطيفتي ، ثم دخل واغتسل ، فخرج قبلي ، وأخذ قطيفتي ، فتبعته ، فزعم أنها قطيفته ، فقال : ألك يدنة ؟ قال : لا ، قال : اثتوني بمشط ، فأثي به ، فسرّح رأس هذا ، ثم هذا ، فخرج من رأس أحدهما صوف أحمر ، ومن رأس الآخر أخضر ، فقضى بالأخضر لصاحب الأخضر ، وبالأحمر لصاحب الأحمر .

وأتى المدينة فصلّى في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فزكّنه أهله حتى صاروا فرقتين : فرقة تزعم أنه معلم ، وأخرى تزعم أنه قاضٍ ، ثم وجهوا إليه رجلاً ، فأخبره خبرهم ، فقال : أهباب الذين ذكروا أني قاضٍ ، ورويداً أخبرك عن القوم ؛ أما الذي منّ صفتُهُ كذا فهو كذا ، وأما الذي يليه فهو كذا ، وأما ذاك الشيخ فإنه نجار ، فقال الرجل : في كلهم والله أصبت إلا في الشيخ ،

فإنه من قريش ، فقال إياس : وإن كان من قريش ! فقام الرجل إلى أصحابه ، فقال : قد جئتكم من عند أعجب الناس ، والله إن منكم من أحدٍ إلا أخبرني بصناعته إلا هذا فزعم أنه نجار ، فقال : صدق والله : إني لأنجر عيدان جوارى - يعني عود الزمار .

ونظر إلى ثلاث نسوة فزعن من شيء ، فقال : هذه حامل ، وهذه مرضع ، وهذه بكر ، فسئنان فوؤجذن كذلك ، فسئل من أين لك علم ذلك ؟ فقال : لما فزعن وضعت كل واحدة منهن يدها على أهم المواضع لها ، فوضعت المرضع على ثديها ، والحامل على بطنها ، والبكر على فرجها .

وسمع نباح كلب لم يره ، فقال : هذا نباح كلب مربوط على شفير بئر ، فنظر فكان كما قال ، فقيل له في ذلك ، فقال : سمعت عند نباحه دويًا ، ثم سمعت بعده صي يخبية ، فعلمت أنه عند بئر .

ومن فراسته أنه رأى أثر اعتلاف بعير ، فقال : هذا بعير أعور ، فنظروا فكان كما قال ، فقيل له في ذلك ، فقال : لأن وجدت اعتلافه من جهة واحدة .

ولما صار ذكاؤه يضرب به المثل ، كما يضرب بجود حاتم وحلم الأحنف وشجاعة عمرو بن معديكرب ، نظمهم حبيب في بيت جمع فضلهم المتفرق للعباس ابن المأمون ، فقال :

إقدامُ عمرو في سماحة حاتمٍ في حلمٍ أحنفٍ في ذكاءِ إياسٍ^(١)

وتوفي سنة ثنتين وعشرين ومائة . وأخباره كثيرة ، وفيما أوردناه كفاية .

فَعَرَفْتُهُ حِينَئِذٍ شَخْصِي ؛ وَآثَرْتُهُ بِأَحَدٍ قُمَعِي ، وَأَهْبَتُ بِهِ
إِلَى قُرَيْصِي ، فَهَشَّ لِعَارِفَتِي وَعِرْفَانِي ، وَلَبِي دَعْوَةَ رُغْفَانِي ،

(١) ديوانه ١٧٤ ، وفيه : « يمدح أحمد بن المعتصم » .

وَانطَلَقَ وَيَدِي زَمَامُهُ ، وَظَلَى إِمَامُهُ ، وَالْمَجُوزُ ثَلَاثَةُ الْأَثَافِي ،
 وَالرَّقِيبُ الَّذِي لَا يَخْفَى عَلَيْهِ خَافِي . فَلَمَّا اسْتَحْلَسَ وَكُنْتِي ،
 وَأَحْضَرْتُهُ عَجَالَةً مُسَكَّنِي ، قَالَ لِي : يَا حَارِثُ ، أَمَعْنَا ثَالِثُ ؟
 فَقُلْتُ : لَيْسَ إِلَّا الْعَجُوزُ ، قَالَ : مَا دُونَهَا سِرٌّ مَحْجُوزٌ . ثُمَّ فَتَحَ
 لِإِحْدَى كَرِيَمَتَيْهِ ، وَرَأَى بِنُوَ مَتَيْهِ ، فَإِذَا سِرَاجًا وَجْهَهُ يَقْدَانِ ،
 كَأَنَّهُمَا الْفَرَقْدَانِ . فَأَبْتَهَجْتُ بِسَلَامَةٍ بَصْرِهِ ، وَعَجَبْتُ مِنْ
 غَرَائِبِ سَيْرِهِ ، وَلَمْ يُبْلِقْنِي قَرَارٌ ، وَلَا طَاوَعَنِي اصْطِبَارٌ ، حَتَّى
 سَأَلْتُهُ : مَا دَعَاكَ إِلَى التَّمَالِي ؛ مَعَ سَتِيرِكَ فِي الْمَعَامِي ، وَجَوَابِكَ الْمَوَامِي ،
 وَيَا نَالِكَ فِي الْمَرَامِي !

* * *

قوله : « أهبت به » ، أى دعوته ، وأصل « أهاب » دعاء نفسه من بئد . وقيل :
 الإهابة دعاء الإبل للشرب . والقُرْصُ : رغيص صغير سُمِّيَ قرصاً ، كأنه قرص من
 العجين ، أى قُطِعَ ، والتقريص : التقطيع . هَشٌّ : خف فرحاً . والعارفة ، يريد النعمة
 وهى المعروف . لَبِي : أجاب وقال : لبيك ، ومصدره تلبية وهى « تفعلة » ، من
 الإلباب وهو اللزوم ، ولَبٌّ بالمكان وألب به : أقام ، وأصله لَبَّبَ بثلاث باءات ،
 فأبدلوا الآخرة باء استئقلا لاجتماع الأمثال ، كما قالوا : تظنيت وتمطيت ، فإلباء
 فيهما بدل من مثل الحرف الذى قبلها ، ثم أتبعوه الإبدال فى المصدر وهو تلبية ،
 فإؤه باء ، وقولهم : لبيك ، معناه إجابة بعد إجابة ، ولزوماً لطاعتك بعد لزوم .
 رُغْفَانٌ : جمع رغيص ، يريد أنه لما سمع يذكر الخبر ، فكان الخبر دعاه فأجابه .
 زحامة : مقوده . إمامه : هاديه . الأثافي : حجارة القدر ، وهى ثلاث ، والعرب
 تقول : رماه الله بثلاثة الأثافي - يعنون بها الجبل ، لأنهم يجعلون حجرين

ويلصقونهما بالجبل ، فيقوم الجبل مقام الحجر الثالث ، واحدتها أُنْمِيَّةٌ بالتشديد ، وقد تُخَفَّفُ ، وقد أُنْفَيْتِ القدر وأُنْفَتْها ونَفَيْتِها ، وتسمى العرب أُنْفَاقَ الحديد المنصَّب . الرقيب : الحافظ ، يريد الله تعالى . استحلَسَ وُكْمَتِي ، أى دخل بيتي ، وجلس على حِاسِه ، وهو ما يُبَسِّطُ تحت بسطه ؛ يقبها الأرض ، وفلان حِلسِ بيته ، أى لازم التعمود فيه ، وفي الحديث : « كن في الفتنة حِلسِ بيتك » ، أى لا تدخل فيها ، والحِلسُ : كساء يلي ظهر البعير تحت البرذعة ويلزمه ، فُسْبُه الذين يعرفون الشيء ويلزمونه بالحِلسِ ، ومنه قولهم : لست من أحلاسها ، أى من أصحابها العارفين بها . ومنه بنو فلان أحلاس الخيل ، أى الذين يضْمُرُونها ويلزمون ظهورها ، وأحلاس القوافي : المجيدون في نظم الشعر ، والوُكْنَةُ : الثقبه في الحائط يسكنها الطائر ، وقيل : هى الموضع من الشجرة وغيرها ، يقع عليه للمبيت ، وهى الوَكْنُ ، ووَكْنُ الطائرُ وَكْنًا ، فهو واكن إذا حضن على فرخه ، فلزم وُكْمَتَه . عَجَالَةٌ مُكْمَتِي : ما تعجَّلَ وأمكن من الطعام . محجوز : ممنوع ، وحجزت الشيء : حَزَزْتَه ومنعته ، وحجزت بين الشئين حجزاً ، فأنا حاجز ، إذا جعلت بينهما حائلاً ، والمنعول محجوز ، ومنه الحِجَاز ؛ لأنها أرض حجزت بين نجد والسَّراة . كَرِيمَتِيه : عينيه ، وفي الحديث قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما من عبد أذهب الله كَرِيمَتِيه إلا كان ثوابه عند الله الجنة » قالوا : وما كَرِيمَتَاهُ ؟ قال : عيناه . رَأَى : قَلَبَهُمَا وأدارها إدارة كثيرة . وتوهمتاه : كَرِيمَتَاهُ ، وقوله : « مسح كَرِيمَتِيه » ، يريد أنه حَكَّمَهُمَا بكفِّه ، فانتفض عنهما ما كان ألصقهما به ، حتى التحا . وقيل : رَأَى : أدار العين وحدد نظرها . وتوهمتاه : عيناه ، وفي الغريب المصنَّف : رَأَتْ المرأة بعينها ولألأت ، إذا برقت عينيها ، وأشد ابن الأعرابي :

عجبت من الحور الكريم نجارها تُرَأَى بالعينين للرجل الحليل^(١)

الحليل : الداهية . الفرقدان : نجان مُنيران في بنات نعش . ابتهجت : فرحت .

(١) اللسان - حبل ، وروايته : « فيا عجبا للغود تندی قناعها » .

سِيرَه : عاداته . يُدَقِّنِي قَرَار : يحبسني سكون وطمانينة . التَّعَامِي : استعمال العمى .
 المعامى : الطَّرِيقُ الجُهولَةُ ، وقيل : القِفَارُ البعيدة التي تعمى فيها الأثَارُ فلا يُهْتَدَى
 فيها . الموامى : القِفَارُ ، واحدها مَوَامة . إِبغَالِك : إِبعادك ومبالغة دخولك .
 المرامى : المقاصد والبلاد التي ترميه إلى بلاد أُخْرَى ؛ يقول : سألته ما الذي
 دعاك إلى استعمالك العمى مع دخولك لطلبك الرزق في المشقات وجَوْبُ البلاد
 البعيدة ، فلم تجِدْ لنفسك حيلة حتى تشبَّهت بالعميان !

* * *

فَتَظَاهَرَ بِاللُّكْنَةِ ، وَتَشَاغَلَ بِاللَّهْنَةِ ، حَتَّى إِذَا قَضَى وَطَرَهُ ، أَتَارَ
 إِلَى نَظَرِهِ ؛ وَأَنشَدَ :

وَأَمَّا تَعَامَى الدَّهْرُ وَهُوَ أَبُو الْوَرَى عَنِ الرَّشْدِ فِي أَنْحَائِهِ وَمَقاصِدِهِ
 تَعَامَيْتُ حَتَّى قِيلَ إِنِّي أَخُو عَمَى وَلَا غَرَّرَ أَنْ مَحْذُوقِ الْفَتَى حَذُوقِ الدِّمَةِ
 ثُمَّ قَالَ لِي : انْهَضْ إِلَى الْمُخْدَعِ فَانْتَنِي بِمَسْئُولِ يَرُوقُ الطَّرْفِ ،
 وَيُنْتَقِي السِّكْفِ ، وَيُنْعَمُ الْبَشْرَةَ ، وَيَمَطِّرُ السِّكْمَةَ ، وَيَشْدُ اللَّئِمَةَ ،
 وَيَقْوَى الْمِعْدَةَ ، وَتِيكُنْ نَظِيفَ الطَّرْفِ ، أَرِيحَ انْعَرَفِ ، أَيْ
 الدَّقِّ ، نَاعِمِ السَّحْقِ ، يَحْسِبُهُ اللَّامِسُ ذُرُورًا ، وَيَخَالُهُ النَّاشِقُ كَأَفُورًا ،
 وَأَقْرُنْ بِهِ خِلَالَ تَقِيَةِ الْأَصْلِ ، مَحْبُوبَةَ الْوَصْلِ ، أُنَيْقَةَ الشَّكْلِ ، مَدْعَاةَ
 إِلَى الْأَكْلِ ؛ لَهَا نَعَافَةُ الصَّبِّ ، وَصَفَاةُ التَّمْضِيبِ ، وَآلَةُ الْحَرْبِ ،
 وَلِدُونَةُ النُّضْنِ الرَّطْبِ .

تظاهر : استعان . واللكنة : احتباس اللسان ؛ يريد: لما امتلأ فمه بالطعام .

لم يتسرح لسانه بالكلام ، فوجد بذلك علة لقطع الجواب ، فكان الأكنة أبحاثه على ذلك . اللهمنا : الطعام المعجل للصيف قبل الغداء ، وكل ما تمعجلته قبل إدراك الطعام لهنة ، ولهنّت الضيف : علته بذلك . قضى وطّره : أتم حاجته من الأكل ، والوطر : المراد ، ولا فعل له . أثار : تابع نظره وحدده . الورى : الخلق . آبحاثه : أغراضه ومقاصده ، والنحو كالتصديق . لاغزو : لا عجب . يحدو حدوة : أى يفعل فعله .

[ذكر العمى وما ورد فيه من الشعر]

وهذا الاعتذار عن التعامى حسن ، وقد تقدم اعتذار ابن عباس رضى الله عنهما عنه . ومما يميز للحضري^(١) فى ذلك :

وقالوا قد عميت فقلت كلاً
سواد العين زار سواد قلبى
فإبى اليوم أبصر من بصير
ليجتمعاً على فهم الأمور
أخذته من قول بشار :

إذا ولد المولود أعمى وجدته
عميت جنيناً والدّكاء من العمى
وجدك أهدى من بصير وأحولاً^(٢)
فجئت عجيب الظنّ للعلم معقلاً
وغاض ضياء العين للقلب فاعتدى
وشعر كنوز الرّوض لا امت بينه
بقلب إذا ما ضيع الناس حصلاً
بقول إذا ما أحزن الشجر أسهلاً
وقال بشار :

قالوا العمى منظرٌ قبيحٌ
تالله ما فى البلاد شىء
قلت بفقدي لكم يهون^(٣)
تأسى على فقده العيون

(١) الحضري ، بضم الحاء وسكون الصاد ، منسوب إلى عمل المصر أو يبعها : على ابن عبد الغنى القيروانى ، صاحب قصيدة « يليل الصب » ، وهو ابن خالة لإبراهيم بن على الحضري ، صاحب كتاب زهر الآداب ، والبيتان فى نكت الهميان ٧٦ .
(٢) الأبيات عدا الأولى فى الأغاني ٣ : ١٤٢ ، ونكت الهميان ٧٥ .
(٣) نكت الهميان ٧٥ .

وعكس هذا المعنى أبو العيناء حين سأله المتوكل : ما أشدُّ ما عليك في ذهاب بصرِك؟ قال : ما حرِّمته يا أمير المؤمنين من رؤيتك مع إجماع الناس على جمالك .

ومما يُستملح من هذا الباب : نشأ أعمى بين أعورين ، فإذا مشيا أو قعدا ، فحاذى عورُ هذا عورَ هذا نشأ بينهما أعمى .

وقال المتنبى يمدح العورَ ويذمه في بيت واحد :

أيا بن كروسٍ يانصفَ أعمى وإن تفخر فيا نصفَ البصير^(١)
فإذا انضمَّ ابن كروسٍ إلى مثله نشأ بينهما أعمى ، قال الشاعر :
وبيننا أبدأ أعمى نؤلّفه قد يخلق الله عميانا من العورِ
وقال آخر :

ألم ترني وعمراً حين نغدو إلى الحاجات ليس لنا نظيرُ
أسايره على يميني يديه وفيما بيننا رجلٌ ضريرُ
وقال آخر في أعور وعوراء تعاشقا :

هي عوراء باليمين وهذا أعورٌ بالشمال وافق شتّا
بين شخصيهما ضريرٌ إذا ما قعدت عن شماله تنفّى
فأما قول جميل^(٢) اليشكري في صفة الذئب^(٣) :

وأعور من يمينه إن شاء مرة وإن شاء من يسراه ما كان راقداً
لقد فرزت دون العور - أوس - برتبة^(٣) وأعطيت نابا يفلق الصخر بارداً

(١) ديوانه ٢ : ١٤٤ ، قال في شرحه **ب** يخاطب ابن كروس الأعور وكان يماديه .

(٢) كذا في الأصول ، ولمه تصحيف عن **ب** المنخل .

(٣) أوس اسم علم على الذئب .

فإنما وصفه بشدة الحذر ، وذكر العور على معنى الاستعارة كما قال حميد
ابن ثور :

ينامُ بإحدى مقلتيه ويتقى بأخرى المنايا فهو يقظان نائم^(١)

وقال ابن المعتل :

أشهى في المقلة القبلا لا كثيراً يشبه الحولاً
واحمرار الحدّ من خجلٍ إننى أستحسن الخجلاً

وقال آخر :

وأحولٍ ذى حرّكه وأحولٍ يملأ بيتى برّكه

يريد أنه يرى من الشئ اثنتين ، كما قال الآخر :

فقد جعلتُ أرى الشخصين أربعةً والواحد اثنتين تما بورك البصرُ

لأن هذا يصف الكبير .

واعترض القاضي أبو محمد عبد الوهاب^(٢) عن الحول فأحسن ، حيث يقول :

حمدت إلهي إذ بُليت بحبّها وبي حَوْلٌ يفنى عن النَّظَرِ الشَّرِّ
نظرتُ إليها والرّقيبُ يظنّني نظرتُ إليه، فاسترحت من العُذْرِ

فجّوهُ رفع عنه ثقل مؤنة التكلف الذي ذكر الآخر حين قال :

ولما التقينا والعيونُ نواظرنُ وليس لنا رُسلٌ سوى الطَّرفِ للطَّرفِ

(١) البيت لحميد بن ثور ، ديوانه ١٠٥ ، : « يقظان حاجم » .

(٢) هو أبو محمد عبد الوهاب بن نصر بن أحمد المالكي ، القاضي ذكره البناهي في

تنزهت في خديك من نظر خفي
وما زلت أخفي الود ضعفاً على ضعفي
فإن غفل الواشون فزت بنظرة
وإن نظروا نحوي نظرت إلى كفي
فلذلك حمد الله على الحول .

وقال الناشئ في هذا المعنى فأحسن :

يتناقضان اللفظ من جنبيهما
فكأنما يتناسخان كتاباً
وإذا سَهت عينُ الرقيب تحالست
كفأهما خأس السلام سلاباً

وللقاضي أبي محمد عبد الوهاب ، أنشدنا بعض أشياخنا البيت الثاني والأخير من القطعة التالية ، وكان كثيراً ما يحرضنا بها على الطلب ، ويسلينا عن الغربة :

ومحجوبة في الخدر عن كل ناظرٍ
ولو برزت بالليل ماضل من يسرى
أقول لها والدمع يفلب صبرها
أعدى لفقدي ما استطعت من العبر
سأنفق ريعان الشبيبة آنفاً
على طلب العلياء أو طلب الأجر
أليس من الحرمان أن ليالياً
تمرُّ بلا نفعٍ وتحسب من عمرى
ولم ينشدنا البيت الأول ولا الأوسط ، وهما من القطعة .

وأما كلام الحريري الذي فرغنا من شرحه ؛ فهو منقول من مقامة البديع^(١) ، يقول على لسان عيسى بن هشام : « ثم فارقهم وتبعته ، وعرفت أنه متعام لسرعة ما عرف الدينار . فلما نظمتنا خلوة ، مددت يميني إلى يسرى عضديه ، فقلت : والله لتريي سرّك ، أو لأهتك^(٢) سترك ، ففتح عن توءمته^(٣) ، وحدر لثامه عن وجهه ، فإذا والله أبو الفتح الإسكندري ، فقلت له : أنت أبو الفتح ؟ فقال :

(٢) المقامات : « لا كفنى » .

(١) المقامات ٩٣ .

(٣) المقامات : « توءمتي لوز » .

أنا أبو قلمونُ في كلِّ لونٍ أكونُ
 اختر من الكسبِ دوناً فإنَّ دهرَكَ دُونَ
 زَجِّ الزَّمانِ بِحَمَقِي إنَّ الزَّمانَ زَبُونُ
 لا تكذبنَّ بعقلي ما العقلُ إلا الجنونُ

وعتب الحريري على العمى فائق في النثر، وشعره في الاعتذار عنه رائق في النظم، وهو على انطباعه في القصد إذا أتى بالبيتين أتى بالعجب، وهو في ذلك كما قيل في أبي منصور الفقيه: إذا رمى بزُجَّيه قتل.

قوله: «الخدع»، هو بيت داخل بيت، قال ابن الأنباري: هو الخزانة في جانب البيت، وهو من خدع، إذا توارى واستتر، وأخدعه إخداعاً: أخفاه، فمن ضمَّ ميم «مُخدع» فهو من «أخدع»، ومن فتح فهو من «خَدع»، وخدع الصبُّ في جُعره خدعاً: دخله خوفاً من صائده. اللَّـوْل: الأُشنان، وهو التناوة، ويقال أيضاً: الفاسول، وكل ما غسلت به ثوبك أو رأسك فهو غِسلٌ وغَسُول. يَرُوق: يعجب. والطرف: العين. ينقُّ: ينظف. والبشرة: ظاهر الجلد. والنكمة: رائحة الفم، ونكمت الرجل أنكبه وأنكبه - والفتح أقل - واستنكته، كلّه شممت فاه، قال الشاعر:

نكمتُ مجالداً فشممتُ منه كريح الكلبِ ماتَ حديثَ عَهْدِ
 واللثة: اللحم على الأسنان. نظيف الظرف: نقي الوعاء. أريج العرف: عطر الرائحة، والأرج: فوح الطيب وأرج المسك: فاح. فتى الدق: طرى الكسر. ناعم: حسن، قد بولغ في سحقه، يريد أنه في الحال الذي يسحق يستعمل. الناشق: الشام. والذرور والكافور: من أنواع الطيب، والذرور هو

(١) السان - نكه، وفيه: «فوجدت منه».

المعروف بالذريعة ، والذرور أيضاً: غبار يُذَرّ في العين، وكله مأخوذ من الذرّ ، وهو التفرق ، لأن أجزاءه تفرقت عند سحبه ، وفعله ذرّ ، وأصله ذرر - والكافور مأخوذ من الكفر ، وهو النطفية ، فلشدة فَوْحِهِ وحده يستر رائحة غيره من الطيب . واللّامس : الذي يمسّه بيده . الخلالة : عوید رقيق يخرج به الطعام من خلل الأسنان . أنيقة الشكل ، معجبة الهيئة ، وشكل الشيء : هيئته التي هو عليها . ومدعاة : داعية ، والماء للمبالغة . نحافة الصبّ : رقة العاشق . والمضب : السيف القاطع . آلة : عدّة وأداة ، يريد أنها محدّدة مصقولة مثل آلة الحرب . ويروى : « آلة » بالتشديد ، وهي الحربة . لدونة : لين . نحافة الصبّ : ليس هو تشبيهاً حقيقياً ، وإنما أراد أنها أخذت من العاشق نحافته ، ومن المضب صقالته ، ومن الفصن لدونته ، ولو شبه الخلالة في الرقة بالعاشق ونحوه لكان جائزاً ، وكان من التشبيه المقلوب ، وكلاهما بديع في بابه .

والخلالة التي ذكر ، أصلها نبات لشجيرة نبت في الصيف ، وتقطع له رءوس ، يكون في الواحد منها عدّة من قضبان رفاق ، فيمسك الرجل منها في يديه رأساً ، فتنى أكل طعاماً نزع منها قضيباً فتخلل به ، ويعرف هذا النبات عندنا بالبستينج ، فيحتمل أن يكون هذا بعينه هو الذي عندهم في المشرق ، وإلا فصفته التي وصفت موجودة في البستينج من الرقة والصفاء واللين والحدة .

وجاء في الحديث النهى عن التغلّل بعود الآس والرمان والقصب ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تقوا أفواهكم بالخلال فإنها مسكن الملكين للكاتبين الحافظين ، وإن قلمها اللسان ، ومدادها الرقيق ، وليس عليهما شئ أشدّ من فضول الطعام » .

أبو أيوب : قال صلى الله عليه وسلم : « حبذا المتغلّلون في الرضوء والطعام » .
أبو هريرة قال : قال صلى الله عليه وسلم : « من أكل فليتنخل ، فما تنخل فليلفظ ، ومالك بلسانه فليبتلع » .

[استطراد بذكر أشعار في التشبيه راقية]

والخِلالة إذا بلغت من رقتها ، أن تقع بين الأسنان ، فالعاشق إذا بلغ الغاية التحول ، هو الذي يشبه بها ، كما قال في التاسعة في وصف الصبي الهزيل من الجوع : « ولى منه سُلالة ، كأنها خِلالَة » ، وأخذه من قول ديك الجن :

ارحَمَ اليوم ذلَّتِي وخُضوعي فلقد صرت ناحلاً كالخِلالِ

وقال أبو الطَّيِّب :

رُوحٌ تَرَدَّدُ في مِثْلِ الخِلالِ إذا أطارت الرِّيحُ عنه الثوبُ لم يَبِينِ^(١)

فذكر أن ثوبه على بدن لم يتبين للناظر . والتشبيه المقلوب عندهم شيء مستظرف ، ومذهب مستحسن كما قال ذو الرِّمة :

ورمِلِ كأوراكِ العذارى قطعته وقد جَلَّته للظلماتِ الحنَّاسِ^(٢)

فقلب التشبيه ، لأن العادة أن تشبّه الأعجاز بكثبان الرمل ، كما قال الآخر :

* مثل قضيبٍ تحته كثيبُ *

وكما قال الآخر :

ويبيضُ نصيراتِ الوجوه كأنما تَأزَّرُنْ دون الأزرِّرمِلاتِ عالجِ

وأخذه حبيب ، وجود الصنعة حيث قال :

كم أحرزتِ قُضْبَ الهنديِّ مصلتةً تهتزُّ من قُضْبٍ تهتزُّ من كُشْبِ^(٣)

(١) ديوانه ٤ : ١٨٦

(٢) ديوانه ٣١٨

(٣) ديوانه ١١

علق قوله: «من قُضِبَ تهتز» : «أحرزت» يلج^(١) لك بديع صنعته بسرعة ، فإنه أراد: كم أحرزت قُضِبَ الهند وهي السيوف إذا أُصْلِتَتْ من أغمادها ، وهزّت من قُضِب ، أي قدود نساء . تهتز من كُشِب ، أي أكفال شبه أكداس رمال . وما أعذب وأظرف قول البحترى :

أين الغزال المستعير من النَّقَا كَفَلًا ومن نَوْرِ الْأَفَاحِي مَبِيسًا^(٢)

فهذا هو الذى جرت به العادة فى التشبيه ، قلب ذو الرمة العُرف والعادة ؛ فشبهه كُشبان النَّقَا بأ كفال النساء ، وتبعه خالد الكاتب وغيره . حدث جحظة قال : حدثني خالد الكاتب ، قال : جاءني يوماً رسول إبراهيم بن المهديّ ، فسرت إليه ، فرأيت رجلاً أسود على فُرُشٍ قد غاص فيها ، فاستجسني وقال : أنشدني من شعرك ، فأنشدته :

رأتُ منه عيني منظرين كما رأْتُ من الشمس والبدر المنير على الأرض
عشيّة حَيَّانِي بورِدٍ كأنّه خدود أضيقتُ بعضهنّ إلى بعض
ونازعني كأساً كأنّ حبابها دموعي لما صدّ عن مُقلتي غمضي
وراحَ وفعلُ الرّاحِ فى حرّكاته كِفعلِ نسيم الرّيح فى العُصن الغصّ

فزحف حتى صار فى ثلثي الفراش ، وقال : يا فتى ، شبهوا الخدود بالورد ، وأنت شبهت الورد بالخدود ! فزدني ، فأنشدته :

عابتُ نفسي فى هواك فلم أجدها تقبل^(٣)
وأطمت داعيها إليّ بك ولم أطع من يعذِل
لاوالذى جعل الوجو ه لحسن وجهك تمثُل
لاقلت إن الصبر عندك من التّصابي أجمل

(١) كذا فى ا ، ب ، و فى ط : « يلج » .

(٢) الأغاني ٢١ : ٣١

(٣) ديوانه ٨١٩٥

فزحف حتى انحدر من الفراش ، ثم قال : زدني ، فأشدته :

عش فحُبِّيكَ سريعاَ قاتلي والعمى إن لم تصلني واصلِي
فأنا بين اكتابِ وضئِي تركاني كاتمةِ ضيبِ الذابل
فبكي العاذل لي من رحمةِ فبكاني لبكاءِ العاذلِ

فاستخفتُ طرباً ، ثم قال : يابليق^(١) ، كم معك لنفقتنا؟ قال : ثمانمائة وخمسون ديناراً ، قال : اقسما بيني وبين خالد ، فدفع إلي نصفها .

وقد سبق إلى قوله : « كأنه خدود » ، قال المفضل : دخلت على الرشيد وبين يديه طبق ورد ، وعنده جاريةٌ مليحة شاعرةٌ أديبة ، قد أهديت إليه ، قال : يا مفضل ، قل في هذا الورد شيئاً تشبهه به ، فأنشأتُ أقول :

كأنه خدٌ ممشوقٍ يقبلُهُ فم الحبيب وقد أبقى به خجلاً

وقالت الجارية :

كأنه لونٌ خدِي حين تدفني كف الرشيدِ لأمر يوجب الفسلاً
فقال : يا مفضل قم فاخرج ، فإن هذه الماجنة قد هيَّجتنا ، قصمت وأرخت السور .

ولقد أحسن ابن الزقاق في قوله :

ورياضٍ من الشقائق أضحتُ تنهادي بها نسيم الرياح^(٢)
زرتها والغانم يجلد منها زهراتٍ تروق لونَ الزاج
قات : ما ذنبها ؟ فقال مجيباً : سرقتُ حُجْرَةَ الخدودِ الملاحِ

(١) الأغاني : « يابليق » .

(٢) ديوانه ١٣٥ ، المغرب ٣٢٤ .

وقال البحرى :

في طلعة الشمس شئاً من ملاحظتها وللقضيب نصيبٌ من تشبيهاً^(١)

وقال ابن المعتز :

سقتنى في ليلٍ شبيهه بشعرها شبيهةً خديها بغير رقيب

فأمسيتُ في ليلين: في الشعر والدجى وشمسين : من خمر وخذ حبيب

وأستطرد إلى قلب التشبيه من مبالغة التحول الذى ذكرنا ، فأقول : إذا

صار جسم العاشق من التحول يوصف بمثل قول الشاعر :

أنحلتى الحبّ فلو زجّ بى فى مُقلّة النائم لم ينتبه

قد كان لى فيما مضى خاتمٌ والآن لو شئت تمنطقت به

وبمثل قول أبى بكر بن دريد :

إن الذى أبيت من جسمه يامتاف الصبّ ولم يشعُر^(٢)

صباية لو أنها قطرة تجول فى جفك لم تقطر

صار جسم الخلالة على نحافته أكبر من جسم الصبّ بأضعاف ، فينقلب

التشبيه ، وكذلك إذا بولغ فى وصف الأكفال بالعظم صغرت عندها الكتبان ،

فينقلب التشبيه .

وقد ترجم ابن جنى فى خصائصه ترجمة ، فقال : هذا باب من غلبة الأصول

على الفروع ، ثم أنشد بعض ما أنشدنا ، وقرنها بمسائل من العربية حسان تشبه

الباب^(٣) .

(١) ديوانه ٢٤١ ، وفيه : « فى حمرة الورد شكل من تلبها » .

(٢) ديوانه ٦٧

(٣) الخصائص ١ : ٢٠١ - ٢٠٢

وللمتقدمين والمتأخرين في النحول شعر كثير، ويستحسن في ذلك قول المجنون:
فأصبحتُ من ليلَى الغداة كناظرٍ - مع الصَّبحِ في أعقابِ نجمِ مغربٍ^(١)
ألا إنما غادرتِ يا أمَّ مالكٍ - صدَى أينما تذهبُ به الريحُ يذهبُ
أخذه المؤمل فقال :

قد صرتُ من ضعفى إلى حالَةٍ تجرى لها آمانُ حُسادى
يكاد جسى من نحول الضىّ تحمله أنفاسُ عوادى
وزاد خالد الكاتب ، فجعله لا يدرك إلا بالوهم ، فقال :

يا من تجاهلَ عما كان يعمله عمداً وباح بسرِّ كان يكتُمه
غداً خليلك نضواً لاحراكَ به لم يبق من جسمه إلا توهُمه
فزاد ابن المعتز ، وجعله يخفى على الموت ، فقال :

مُسَهَّدٌ خانهُ التفريقُ في أصلِهِ أضناه سيده ظلاماً بمرتحله^(٢)
فدقَّ حتى لو أن الدهرَ قادَ لهُ حنناً لما أبعثرته مقلتنا أجله
فأقدمه المتنبي واستريح منه ، فقال :

أراكِ حسبِ السلكِ جسى فَعَقَّتِهِ عليكِ بدرٍ عن لقاء الترائبِ^(٣)
ولو قلمُ ألقيتُ في شقِّ رأسِهِ من السقمِ ماغيَّرتُ من خطِّ كاتبِ

* * *

قال : فَهَضَّتْ فِيما أَمَرَ ، لأذراً عَنْهُ العَمَرَ ، ولمْ أَمِّ إِلَى أَنَّهُ

(١) البيتان في حساسة ابن الشجرى ١٥٦ بنسبتهما إلى محمد بن الزبير .
(٢) ديوانه ١ : ١٤٩ . السلك : الحيط . والترائب : عجل القلادة من الصدر .

تَقْصِدَ أَنْ يَخْدَعَ، بِإِذْخَالِي الْمَخْدَعَ، وَلَا تَظَنِّيْتُ أَنَّهُ سَخِرَ مِنَ الرَّسُولِ،
فِي اسْتِدْعَاءِ الْخِلَالَةِ وَالْعَسُولِ .

فَلَمَّا عُدْتُ بِالْمُلْتَمَسِ ، فِي أَقْرَبَ مِنْ رَجْعِ النَّفْسِ ، وَجَدْتُ
الْجَوْهَ قَدْ خَلَا ، وَالشَّيْخَ وَالشَّيْخَةَ قَدْ أَجْفَلَا ، فَاسْتَشْطْتُ مِنْ مَكْرِهِ
غَضَبًا ، وَأَوْغَلْتُ فِي إِثْرِهِ طَلَبًا ، فَكَانَ كَمَنْ قُمِسَ فِي الْمَاءِ . أَوْ
عُرِجَ بِهِ إِلَى عَنَانِ السَّمَاءِ .

قوله : «أدرا» ، أى أزيل . القمر : الودك . أم : أظن ، ويذهب وهمى .
تظنيت : حسبت ، وأبدل إحدى نونى «ظن» بياء تخفيفاً للتضعيف . سخر : هنأ .
الملتمس : المطلوب . الجوّه هنا : داخل البيت . أجفلا : هربا وأسرعاً . قوله :
«استشطت» : اشتد غضبى . مكره : خداعه . أوغلت : بالفت وباعدت .
قمس : غمس . عرج به : طلع به . عنان بفتح العين : سحب ، والعنانة :
السحابة ، وأعنّت السماء : صار لها عنان ، والله الموفق للصواب .

المقالة الثامنة وهي المعرّة

[معرّة النعمان]

هي بلدة بالشام ، والنعمان : اسم جبل مطلّ عليها ، والمعرّة اسم البلدة ، فأضيفت إليه ، ولها سبعة أبواب ، وعلى جبل منها دَيْرُ نعمان ، فيه قبر عمر بن عبدالعزيز ، وقبر شيث بن آدم عند باب شيث منها ، وداخلها قبر يوشع بن نون ، وله يوم حَفِيل في كل عام ، وإلى المعرّة ينسب الشاعر المرسي . قال شيخنا ابن جبیر : إنه خرج من قنسرين يريد حِصص ، قال : فرأينا عن يمين طريقنا بمقدار فرسخين بلاد المعرّة ، وهي سواد كلها محاطةٌ بشجر الزيتون والتين والفستق وأنواع النواكه ، ويتصل التفاف بسائتيها وانتظام قراها مسيرة يومين ، وهي من أخصب البلاد ، وأكثرها أرزاقاً ، ووراءها جبل لبنان ، وهو ساهى الارتفاع ، ممتد الطول ، متصل من البحر إلى البحر ، وفي سفح الجبل حصون للملحدة الإسماعيلية ، فرقة مرّقت من الإسلام ، وادّعت الإلهية^(١) ، قيّض لهم شيطان يعرف بسنان ، خدعهم بأباطيل وخيالات ، وموّه عليهم باستعمالها ، وسجرهم ببحالها ، فاتخذوه إلهاً يعبدونه ، ويبدلون الأنفس دونه ، وحصلوا من طاعته^(٢) بحيث يأمر أحدهم بالتردي من شاهق جبل ، فيتردى المأمور ، والله يضل من يشاء^(٣) .

أخبر الحارث بن همام قال : رأيتُ من أعاجيب الزمان ، أن

(١) بعدها في ابن جبیر « في أحد الأيام » .

(٢) بعدها في ابن جبیر « وامثال أمره » .

(٣) رحلة ابن جبیر ٢٣٤

تَقَدَّمَ خَصْمَانِ ، إِلَى قَاضِي مَعْرَةَ النُّعْمَانِ ، أَحَدُهُمَا قَدْ ذَهَبَ مِنْهُ
الْأَطْيَانِ ، وَالْآخَرُ كَأَنَّهُ قَضِيْبُ الْبَانِ .

• • •

قوله : « الأطيان » ، أى الأكل والنكاح ، أى هوشىخ مسن ، وقيل :
الأطيان : النوم والنكاح ، وقيل : طيب النكاح ، وطيب النكحة .
أبو هريرة ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « الأطيان التمر واللبن » .
وسئل شيخ مسن من العرب عن حاه ، قال : ذهب منى الأطيان :
السَّيْرُ وَالْأَيْرُ ، وَيُقَى الْأَرْطَبَانِ : الضَّرَاطُ وَالسَّعَالُ .
والبان : شجر تشبَّه بقضبانهُ القُدود الناعمة .

• • •

قَالَ الشَّيْخُ : أَيَّدَ اللَّهُ الْقَاضِي ، كَمَا أَيَّدَ بِهِ الْمُتَقَاضِي ، إِنَّهُ
كَانَتْ لِي تَمْلُوكُهُ رَشِيْقَةُ الْقَدِّ ، أَسِيْلَةٌ أَخَذْتُ ، صَبُورٌ عَلَى الْكَدِّ ،
تَحْبُ أَحْيَانًا كَالْتَهْدِ ، وَتَرْقُدُ أَطْوَارًا فِي الْمَهْدِ ، وَتَجِدُ فِي تَمُوزَ
مَسَّ الْبَرْدِ ، ذَاتُ عَقْلِ وَعَيْنِ ، وَخَدَّ وَمِيزَانِ ، وَكَفَّ بَيْنَانِ ، وَفَمَّ
بِلَا أَسْنَانِ ؛ تَلْدَغُ بِلِسَانِ نَضْنَانِ ، وَتَرْفُلُ فِي ذَيْلِ فَضْفَاضِ ،
وَتُجَلِي فِي سَوَادِ وَيَاضِ ، وَتُسْقَى وَلَسِكِنْ مِنْ غَيْرِ حِيَاضِ ، نَاصِحَةٌ
خُدَعَةٌ ، خُبَاءَةٌ طَلَمَةٌ ، مَطْبُوعَةٌ عَلَى الْمَنْفَعَةِ ، وَمِطْوَاعَةٌ فِي الضِّيْقِ
وَالسَّعَةِ ، إِذَا قَطَعْتَ وَصَلْتَ ، وَلَيْتِي فَصَلَّتْهَا عَنْكَ أَنْفَعَلْتَ ، وَطَلَمْنَا
خَدَمَتِكَ فَجَعَلْتَ ، وَرُمْنَا جَنَّتْ عَلَيْكَ فَأَلَمْتَ وَمَلَمَلْتَ ، وَإِنَّ هَذَا

الْفَقِي اسْتَعْدَمَنِيهَا لِغُرْضٍ ، فَأَخَذْتُهُ إِيَّاهَا بِلَا عِيُوضٍ ، عَلَى أَنْ
يَجْتَنِي نَفْعَهَا ، وَلَا يُكَلِّفَهَا إِلَّا وَسْمَهَا ، فَأَوْلَجَ فِيهَا مَتَاعَهُ ، وَأَطَالَ
بِهَا اسْتِمْتَاعَهُ ، ثُمَّ أَعَادَهَا إِلَيَّ وَقَدْ أَفْضَاهَا ، وَبَدَلَ عَنْهَا قِيَمَةً
لَا أَرْضَاهَا .

* * *

المقاضي ، أى المتحاكم إليه الذى يطلب من الحاكم قضاءه ، وعونه على خصمه؛
وهذا الغرض الذى ذكره ضرب من الألفاظ ، لأنه مشى كلامه فى وصف جارية
وغلام ، وقد ضمن الكلام وصف إبرة ومرود. مملوكة ، يعنى الإبرة جطها مملوكة
لأنها مما يتمول. رشيقة القد : معتدلة القامة . أسيلة : ملساء . خد الإبرة : شق فيه
تقبها ، وأصل الخد شق مستطيل فى الأرض ، والأسالة : ملاة مع طول .

صبور على الكد ، أى صابرة على المشقة والتعب ، وفعل - بمعنى فاعل -

يمنتع من إلحاق الماء به إذا وقع صفة لمؤنث ، قال عنتره :

إِنِّي أَمْرٌ سَهْلٌ الْخَلِيقَةَ مَاجِدٌ لَا تُتْبِعِ النَّفْسَ اللَّجُوجَ هَوَاهَا

ومنه : امرأة شكور وصبور ورجوع ولحن أبو محمد خواص العراق بقولهم :

شكورة ولجوجة وصبورة ، قال : إن هذه التاء إنما تدخل فى «فعل» إذا كانت

بمعنى «مفعول» ، نحو ناقة ركوبة وشاة حلوبة^(١) . قال : وذكر النحويون فى امتناع

الماء من «فعل» بمعنى «فاعل» للمؤنث عيلاً ، أجودها أن الصفات الموضوعية-

للمبالغة نقلت عن بابها لتدل على المعنى الذى تخصصت به ، فأسقط الماء من صبور

وفتاة معطار ونظائره ؛ كما ألحقت بصفة المذكور فى رجل علامة ونسابة ، ليدل

على تحقيق المبالغة ، وتؤذن بحدوث معنى زائد فى الصفة . وامتناع الماء المذكورة

(١) قال فى درة النورس : «لانهما بمعنى ركوبة وحلوبة» .

أصل مطرد [لم يشذ منه إلا قولهم] ^(١): عدوّة، فإنهم ألقوه بصديقه، والشئ في أصول العربية [قد] يحتمل على ضده وتقيضه، كما يحتمل على نظيره ورسيه ^(٢).
 تخبّ: تثب في الثوب بسرعة. النهّد: الفرس الضخم. أطواراً: أحياناً، ومهدا: مثير الخائط الذي تمسك به إبرته. تمّوز: أحد الشهور، وهو يوليه.
 والبرد: أن يبردها الحدّاد بالبرد ليقومها ويمدّها، فالبرد هنا فعل صانمها. قال ابن ظفر: ذهب بالبرد إلى ما طبع عليه الحديد من البرد في القيظ. قوله: «ذات عقل وعنان»، أراد بالعنان الخيط لأنها ترسله في الخياطة، والعقل شدّها بالخيوط حين تمسك في الثوب. سنان: طرفها السنون، أي الحدّد. كفّ بينان: الكفّ والتضريب شيثان معروفان في الخياطة، فيريد أن الخائط يقبّ التضريب بأصابعه وهي البنان ويكفّه بالإبرة. فم، يريد ثقب الإبرة. تلدغ: تضرب الإصبع. واللسان النضناض للحية، والنّضنضة، قيل: هي صوت الحية، وقيل: حركة لسانها، وإنما اختلف فيها لأن الحية إذا ضيق عليها فتجت فاها وصفرت وحركت لسانها، فيقال: نضنضت، وشبه طرف الإبرة بلسان الحية لكثرة حركته في الثوب؛ وما أحسن قول الشاعر في تشبيه لسان الأفعى بنور السراج:

وقنديل كأن النور منه محيّا من أحبّ إذا تجلّى
 أشار على الدجى بلسان أفعى فشمّر ذيله فرقا وولّى

وقال ابن الصبّاغ الصقلّي في شمعته:

يطعن صدر الدجى بعالية صنوبري لسان كوكبها
 كحياة باللسان لاحسية ما أدركت من سواد غيبيها

وللبيتين الأولين حكاية مستظرفة، حدثني بها غير واحد من الطلبة أردت ترك ذكرها لأمرين: لشهرتها، ولأنني وجدت البيتين مثبتين في بعض النسخ من

القلائد لأحد رجالها ، ثم عزم على بعض الأدباء أن أذكرها ، فذكرتها على اختصار لفائدتها ؛ وذلك أن الشاعر المعروف بالبكيّ الهجاء ، دخل عليه في ليلة مطرة ذات رعد وبرق في بيت فندق دوابّ - شخص في الظلام لا يعرفه ، وعلى البكيّ بقية من سلّهامة^(١) خلّقة ، لا يواريه غيرُها ، وعلى الثاني بقية من قبيص قد أسودّ من طول البلى وكثرة الأوساخ ، حتى لا يعرف رائبته من أيّ ثوب هو ؛ وقد بلّل كلّ واحدٍ منهما المطر . وهما في بلاء من الفقر والجوع والبرد ، قرّق لهما خادم الفندق ، فدخل عليهما بقنديل ، فعندما نظر كلّ واحد منهما صاحبه تأمّى به ، ورأى أنه قد وجد لنفسه نظيراً في الشقاء . فقال البكيّ لجليسه : أيّ شيء أنت ؟ فقال : شاعر ، وشوّم الأدب بلغ بي ماترى ، قال : فأجز ، فقال :

* * * * *
وقنديلٍ كأنّ النورَ منه *

فقال الآخر :

* * * * *
محيّا من أحبّ إذا تجلّى *

فقال البكيّ :

* * * * *
أشار على الدجى بلسانِ أفعى *

فقال الآخر :

* * * * *
فشمر ذيله فرقا ووّلى *

فقال له البكيّ - وقد أعجب به : بمن تعرّف ؟ فقال : بعنق البرة ، قال له : وأنا البكيّ ، فجعلنا يتناظران بقية ليلتهما في أيّهما أكثر حرماناً ، حتى أصبحا وكانا يتلسان . فقال عنق البرة للبكيّ : هلمّ لنفترع ؛ أيّنا يقيم هنا ، وأيّنا يرتحل ؟ فإننا إن بقينا في موضعٍ واحدٍ ، أدرك الناس من شوّمننا ما يؤدّي بهم إلى الهلاك ، فاقترعا فخرجت قرعة البكيّ بالرحيل ، فارتحل ونزل بفاس ، فخلّ بأهلها من بلائه ما قد شهِر .

(١) كذا في الأصول ، ولم ألق على معناها .

قوله : « ترفل في ذيل فضفاض » ، أى تمشى في خيط طويل . تجلّى في سواد وبياض ، أى تبرز في خيط أسود لخياطة السواد ، وأبيض لخياطة البياض . تسقى : أراد سقى الحدّاد لها إذا أخرجها من النار وألقاها في الماء لتصلب . ناصحة : خائطة ، والنّصاح : الخياط ، ونصحتُ الثوب : خطته . خُدعة : مخدع الخائط كثيراً ، فتخيط وجه الثوب الأعلى ، وتترك الأسفل ، والهاء في هذه الصفات للمبالغة . خُبأة طُلعة ؛ يصف حالها من الخياطة حين تختبئ في الثوب ، ثم تطلع في يد الخائط . مطبوعة ، أى مصنوعة لينتفع بها . مطواعة في الضيق والسّعة ؛ يريد إذا دفعته في الثوب دخلت فيه ، سواء اتسع موضع دخولها أو ضاق . إذا قطعت وصلت ، يريد إذا قطعت الثوب وفصلته ألقته . فصّمتها عنك : نجّيتها ، وجعلتها في مئبرها . خدمتك ، أى صرفتها فيما تحتاج من خياطة ثيابك . جَمَّت : ألفت قطع الثوب . جنت عليك فألمت ، أى ضربتك فأوجعتك وصيّرتك ذا ألم . ماملت ، أى جعلتك متقلّباً لشدة الوجع . قوله : « استخدمنيها » ، أى طلب منى خدمتها . الفرض : الحاجة ، وأصل الفرض ما قصدته سهام الرامي ، ثم سميت الحاجة غرضاً ، لأنها قصدت بالرغبة فيها . وسماها : طاقتها وقدر ما تحمل مما تكلف . أولوج فيها متاعه ، أى أدخل فيها خيطه . أفضاها : خرق عينها ، وفي المرأة خلط مسلكتها ، من أفضيت إلى الشيء ، وصلت إلى متسع ، ومنه : القوم فوضى ، أى متسعون مختلطون . بذل : أعطى .

فَمَالَ الْحَدَثُ : أَمَا الشَّيْخُ فَأَصْدَقُ مِنَ الْقَطَا ، وَأَمَا الْإِفْضَاءُ
فَقَرَطَ عَنْ خَطَا ، وَقَدَرَهُنَّتُهُ ، عَنْ أَرْضِي مَا أَوْهَنْتُهُ ، تَمْلُوكًا لِي
مُتَنَاسِبَ الطَّرْفَيْنِ ، مُتَنَسِبًا إِلَى الْقَيْنِ ، تَقِيًّا مِنَ الدَّرَنِ وَالشَّيْنِ ،
مِيقَارِنُ سَحْلُهُ سَوَادَ الْعَيْنِ . مُفْشِي الْإِحْسَانَ ، وَمِيشِي الْإِسْتِحْسَانَ ،

وَيُغْذِي الْإِنْسَانَ ، وَيَتَحَامَى اللِّسَانَ ، إِنَّ سُودَّ جَادَ ، أَوْ وَسَمَ
 أَجَادَ ، وَإِذَا زُوِّدَ وَهَبَ الزَّادَ ، وَمَتَى اسْتَزِيدَ زَادَ ، لَا يَسْتَقِرُّ بَعْنَى ،
 وَقَلَّمَا يَنْكِيحُ إِلَّا مَثْنَى ، يَسْنُحُو بِمَوْجُودِهِ ، وَيَسْمُو عِنْدَ جُودِهِ ،
 وَيَنْقَادُ مَعَ قَرِينَتِهِ ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مِنْ طِينَتِهِ ، وَسُئِمْتُمْ بِزِينَتِهِ ،
 وَإِنْ لَمْ يُطْمَعْ فِي لِينَتِهِ .

* * *

[القَطَا]

الْقَطَا: طائر يصيح «قَطَا قَطَا» فسُمِّي بصياحه ، وبما يُفهم من صوته ، ولذلك
 تسميه العرب الصَّدُوق ، ويقال : أنسب من قطة ، لأنها إذا صاحت عرفت ،
 وقال الشاعر :

تدعو القطا وبه تدعى إذا انتسبتُ يا صدقها حين تدعوها فتنسبُ
 حمراء مقبله سكاها مدبرة للماء في البحر منها نؤطة مجبُ

وقال الكمي :

لا تكذب القول إن قالت قطا صدقتُ إذ كل ذي نسبة لا بد ينتجِلُ^(١)

وقال أبو وجزة :

مازلن ينسبن وهنأ كل صادقة باتت تبأشر عزمأ غير أزواج^(٢)

(١) الحيوان ٦ : ٥٧٨ .

(٢) الحيوان ٥ : ٥٧٣ ، وروايته : « وهن ينسبن » ، والوهن : نصف الليل

يريد ، أن الحمير وَرَدَت الماء ليلاً ، فَأَثَارَت القَطَا عن أفأحيصه ، فَصَاحَت : « قَطَا قَطَا » ؛ فَذَلِكَ انتسابه وجعلها صادقة لصياحها قَطَا . وَالقُرْمُ بِيضُهَا ، لِأَنَّ فِيهِ سَوَاداً وَبِياضاً ، وَبِيضُ القَطَا أَفْرَادٌ ثَلَاثَةٌ أَوْ خَمْسَةٌ ، قَالَ مِرْزَاةُ العَقِيلِي فِي القَطَا وَفِرَاحِيهَا : فَلَمَّا دَعْتَهُ بِالقَطَاةِ أَجَابَهَا بِمَثَلِ الَّذِي قَالَتْ لَهُ لَمْ يَبْدَلِ ^(١) وَقَالَ المَعْرِيُّ :

عُرِفْتُ جُدُودَكَ إِذْ نَطَقْتَ وَطَالَمَا لَفِظَ القَطَا فَأَبَانَ عَنِ انْتِسَابِهَا ^(٢) .
 وَقَالَ الأَصْمَعِيُّ : القَطَا لِأَنَّهُ لَا تَصِيحُ إِلا إِذَا أَرَادَتِ المَاءَ ، فَإِذَا عَدِمَ المَاءَ ، وَسَمِعَتْ العَرَبُ صِيَاحَ القَطَا ، فَرَحُوا بِهِ وَعَرَفُوا قُرْبَ المَاءِ مِنْ بَعْدِهِ .
 وَقِيلَ : سُمِّيَ القَطَا لِثِقَلِ مَشِيهِ ، يُقَالُ : قَطَا الرَّجُلُ يَقْطُو ، إِذَا ثَقُلَ مَشِيهِ .

* * *

قوله : « فرط » أى سبق . عن خطأ ، أى عن غير تعمد . رهنته : أعطيته . رهناً ، وأرهنتك : أعطيتك ما ترهنه . والأرث : قيمة العيب ، أى دية الجرح ، مأخوذ من أرش بين القوم لأن الأرض يُختصم في قدره . أوهنته : أفسدته ، ووهن الشيء يوهن ويهين : ضعف ، وأوهنته أنا ، إذا أضعفته . مملوكا ، يعنى المرود . متناسب الطرفين ، أى هذا الطرف مثل هذا الطرف ، تكتحل بأيهما شئت . القَيْن : الحدّاد الذى صنعه . الدَرَن : وَسَخُ الحَدِيدِ ، وَالشَّيْن : العيب ، أى هو مصقول معتدل ليس فيه اعوجاج ولا عيب . يقارن محله سواد العين ، أى عند التكلل به . ينشى : يحدث ويظهر . وإحسان الكحل فى العين لا ينشى . ينشىء استحسان ، أى ينشىء لناظر العين استحسان الكحل فى العين .

(١) الحيوان ٥ : ٥٧٨ .

(٢) لم أجده فى سقط الزند ولا فى الأزوميات .

والإنسان : إنسان العين يذيه بالكحل ، والإنسان : السواد الذى فى وسط العين ، إذا رأته رأيت فيه شخصاً ، والشخص هو الإنسان ، فسُمى السواد به . يتحامى : يبعد عنه ، يريد أنه يكحل العين ولا يقرب من الفم . قوله : « سَوْدٌ » ، أى جعل فيه الكحل . جاد : أعطاه العين . وَسَمَ العين بالكحل : أجاد عمله فيها . قلما ينكح إلا مثنى ، أى ينكح عينا واحدة فى الغالب . وقد نظم هذا النثر فى الثانية والأربعين .

جوده ، أى يوجد بكحله للعين . ويسمو : يطعم للعين ، وجعل له الكحل غذاء يأخذ ويرتفع به للغير . قرينته : مكحلته . من طينته : من جنسه . زينته : تزيينه للعين . يطمع فى لينته : أى لا يطمع أن يكون الحديد ليّناً . وكلّ لفظة فسرت بها المرود والإبرة ، لما لفظ فى ظاهرها غير ما فسرت به .

فقال لها القاضى : إِمَّا أَنْ تُمَيِّنَا ، وَإِلَّا فَيَمِينَا ، فابْتَدَرَ

الغلامُ ، وقال :

أَعَارَنِي إِزْرَةَ لِأَرْفُو أَط	مَارًا عَفَاهَا الْبَلَى وَسَوْدَهَا
فَانْحَرَمْتُ فِي يَدِي عَلَى خَطَا	مِنِّي لَمَّا جَذَبْتُ مِقْوَدَهَا
فَلَمْ يَرَ الشَّيْخُ أَنْ يُسَامِحَنِي	بَارْشِهَا إِذْ رَأَى تَأْوُدَهَا
بَلْ قَالَ هَاتِ ابْرَةَ تَعَامِلُهَا	أَوْ قِيمَةَ بَعْدَ أَنْ تُجَوِّدَهَا
وَاعْتَاقَ مِثْلِي رَهْنًا لَدَيْهِ وَنَا	هَيْكَ بِهَا سُبَّةً تَزَوِّدَهَا
فَأَتَمُّنُ مَرَهَى لِرَهْنِهِ وَيَدِي	تَقْصُرُ عَنْ أَنْ تَفُكَّ مِرْوَدَهَا
فَاسْبِرْ بَدَا الشَّرْحُ غَوْرَ مَسْكَتِي	وَارِثِ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ تَعَوِّدَهَا

تبينا : توضّحاً وتفسّراً حديثك الملمّز . فبيننا : أبعدا ، أو ارتفعا .
قوله : «أرفو» أى أخط ، ويروى «لأرفأ» يقال : رفأت الثوب أرفوه ورفوته
وأرفوه ، والرفو من أدقّ أنواع الخياطة ، وهو نسج الخرق في الثوب حتى يعود
كأنه لم يكن فيه خرق .

[مما قيل في رَفْو الثياب]

وقال ابن القابلة السبتيّ في غلام رفاء :

يارافيا قطع كلّ ثوبٍ ويارشا حبةً اعتمادي
عسى بخيطِ الوصالِ ترفو ما قطعَ المجرُّ من فؤادي
وقال الحلوانيّ في خياط :

ربّ خياطٍ فُتنت به فتنة أوهت قوَى جَلدي
لاعبٌ بالخيطِ يفتله أتراه ظنه جسدي !
ليت أنى كنته فأرى بين ذاك الدرّ والبردِ
فملتُ بالثوبِ إبرته فعلَ سهمِ الشوقِ في خلدي
وجرى المِقراضِ في يده جرىَ عينيه على كَبدي

ومن مجون أبي نواس ، أنه كان يؤاكل إسماعيل بن أبي سهل ، فعرضت
له على مائدة رفاقة في جانبها خُرق قد ضمّ ، فرفعها بإحدى يديه ونقرها بالأخرى ،
فانفجرت ، وقال وهو يضحك : أخبزكم مرفوء ؟ فلما خرج قال :

خبز إسماعيل كالونسي إذا ما انشق يُرفأ
عجبا من أثر الصنعة فيه كيف يخفى
إن رفاءك هذا أطف الأمة كفا
فإذا قابل بالتنصّف من الخبزة نصفاً

أَلْطَفَ الصَّنْعَةَ حَتَّى لَا تَرَى الْمَغْرَرَ أَشْفَى
مِثْلَ مَا جَاءَ مِنَ التَّنُورِ مَا غَادَرَ حَرْفًا

والأطوار: الثياب الخلقعة، واحدها طِئْر . عفاها البلي: غَيَّرَهَا القدم ودرسها، وسَوَّدها بالأوساخ حتى صارت في طبع الثوب، فمتى غسلت لم تزل.

[مما قالت الشعراء في الأطوار البالية]

ومما قالت الشعراء في الأطوار البالية مما يستحسن قول الحمدوني في طيلسان^(١) وَهَبَهُ لَهُ أَحْمَدُ بْنُ حَرْبٍ الْمُهَلَّبِيُّ :

يَابْنَ حَرْبٍ أَطَلْتَ هَمِّي بِرَفْوِي طَيْلَسَانًا قَدْ كُنْتُ عَنْهُ غَفِيًّا^(١)
فَهُو فِي الرَّفْوِ آلُ فِرْعَوْنَ فِي الْقَرْوِ ضَ عَلَى النَّارِ بَكْرَةً وَعَشِيًّا
وَقَالَ أَيْضًا فِيهِ :

طَيْلَسَانُ لَابْنِ حَرْبٍ يَتَدَاعَى لَا مَسَاسًا
قَدْ طَوَى قَرْنًا فَقْرَانًا وَأُنَاسًا فَأُنَاسًا
لَبِسَ الْأَيَّامَ حَتَّى لَمْ تَدْعُ فِيهِ لِبَاسًا
غَابَ تَحْتَ الْحَسِّ حَتَّى لَا يُرَى إِلَّا قِيَاسًا

(١) قال الثعالبي في المضاف والمنسوب ٦٠٢ : كان محمد بن حرب أهدى إلى الحمدوني طيلسانا خلقا ، وكان الحمدوني يحفظ قول ابن حمران السلمي في طيلسان :

يَا طَيْلَسَانَ أَبِي حَمْرَانَ قَدْ بَرَمْتَ بِكَ الْحَيَاةَ فَمَا تَلْتَدُّ بِالْعُمْرِ
فِي كُلِّ يَوْمٍ لَهُ رَفًا يَجِدُّهُ هِيَهَاتَ يَنْفَعُ تَجْدِيدُهُ مَعَ الْكِبَرِ
إِذَا ارْتَدَاهُ لَعِيدٍ أَوْ لَجْمَتِهِ تَنْكَبُ النَّاسَ لَا يَبْلَى مِنَ النَّظَرِ

واحتذى حذوه ، واثالث عليه المعاني ، حتى قال في وصف العايلسان قرابة مائتي مقطوعة ، مولا تخلو واحدة منها من معنى بديع

(٢) المضاف والمنسوب للثعالبي ٦٠٢ ، وفيه : « أَطَلْتَ قَرْوِي » .

وقال فيه أيضاً :

قل لابن حرب مقالة العاتب
أما رأيت الرفاء يُحزِنِي
أفناه جَوْرُ البِلي عليه كما
ولستُ فيما أقولُ بالكاذِبِ
برفوه طيلسانك الذَّاهِبِ
أفنى الهوى عُمرَ خالدِ الكاتبِ

وقال فيه أيضاً :

إن ابن حرب جادلي كاسياً
انظر إلى كثرة تمزيقه
رفوى له وهو رميمٌ كمن
يصدعه اللحظ بياضه
يُذْكرُني كثرةً تمزيقه
بطلسان هريمٍ قشعمٍ
كأنما مُزق في ماتمٍ
يبنى بناء فوق مستهدمٍ
صدع فؤاد العاشق للمقرمٍ
تفرق الناس عن الموسمٍ

وقال فيه أيضاً :

يابن حرب كسوتني طيلساناً
حال ترداده إلى الرفو حتى
فحسبنا نسج العناكب قد جئن
مل من صحبة الزمان وصدًا^(١)
لو بعثناه وحدةً لتهدى
إلى ضعف طيلسانك شداً

وقال أيضاً فيه :

يا قاتل الله ابن حرب لقد
بطلسان خلت أن البلي
أجد في رفوى له والبلي
أطال إتعابي على عمدٍ
يطلبه بالوتر والحقد
يلهو به في الهزل والجدد

(١) المضاف والمنسوب ٦٠٣

إن أتهم الرافى فى رفوه مضى به التمزيق فى نجد
غنىته لامضى راحلاً : تركنى باواحدى وحدى

والحدونى هو اسماعيل بن ابراهيم حمدويه ، نسب إلى جده ، وهو من أهل
ميسان ، وكان حلو التصرف مليح الافتنان ، وهو القائل :

من كان فى الدنيا له شارة فنحن من نظارة أذنى
نلحظها من كسب حسرة كأننا لفظ بلا معنى

وقال ابن الرومى فى طيلسانه :

ولى طيلسان ناجل غير أنه ثبوت لهفات الرياح الزعازع
وما ذاك إلا أنه متهتك يخلى سبيل الريح غير منازع
أراه لضوء الشمس بالعين رؤية ويمتنى من لسه بالأصابع
شكاقل اسم الطيلسان لضعفه فسميته ساجا فهل ذاك نأفئى !

وقال ابن سارة فى فروة :

أودت بذات بدى فريوة أرنب كفواد عروة فى الضنا والرقفة
يتجشم الرفاه فى ترقيعها بعد المشقة فى قريب الشقة
لو أن ما أنفتت فى ترقيعها يحصى ل زاد على رمال الرقة
إن قلت : « باسم الله » عندلباسها قرأت على « إذا السماء انشقت »

وله فيها أيضاً :

لى فروة وصنى لجأحتى بها باتيك بين مقسط ومشتف
عطلت كتب أبى عبيد بالذى ألفت فيها من غريب مصتف
يسطو على النرم فى ترقيعها سطو النرام على فواد اللدنف

فأنا وفروى خوف تمزقي لها أحكى معاويةً يجنب الأحنفِ
وله في طيلسانه :

وطيلسان هَرِمٍ يُحْتَمَى عليه أكلُ النخلِ والبقلِ
كأن كفى إذا انضمتا عليه خوف الرّيح في غلِّ
ولبعض أصحابه فيه :

على منكب ابنِ عليٍّ سَمَلٌ تقطمه لحظات اللقَلِ
إذا غيمَ الجوّ أبصرته رهين الذبول بكفّ البَلَلِ
نسوا طيلسان ابنِ حربٍ به وصاروا به يضرّبون المثلَّ
وله في غفّارته (١) :

لأحمد بنِ عليٍّ غفّارةٌ كالسّرّابِ
إن هبَّ أدنى نسيمٍ تمرّ مرّ السّحابِ

والشعر في هذا الباب كثير .

قوله : « انخرمت » ، أى انكسرت . متودها : خيطها . تأودها :
انكسارها ، وأصله الاعوجاج . أعتاق ميبلى : أحبس مرودى . ناهيك :
كافيك ، ومعناه المبالغة ، كأنه بلغ النهاية فى العيب الذى فعل . سبّة : عيب
يُسبّ به . مرهقى : خالية من الكحل ، وقدمره الرجل مرهاً إذا لم يتعهد
الكحل ، والمرهقى من النساء : البيضاء البينة الزرق الذى يختص الكحل فى
زرقها . اسبّر : قس . غور : غاية وقدر . ارث : ارحم وتوجع .



(١) الغفارة ، ككتابة : زرد من الدرع يلبس تحت القلنسوة .

(٢١ - شرح مقامات الحريرى ١)

فَأَقْبَلَ الْقَاضِيَ عَلَى الشَّيْخِ ، وَقَالَ : إِيه ، بِغَيْرِ تَمْوِيهِ ،

فَقَالَ :

أَقْسَمْتُ بِالْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَمَنْ
لَوْ سَاعَفْتَنِي الْأَيَّامُ لَمْ يَرِنِي
وَلَا تَصَدَّيْتُ أَبْتَنِي بَدَلًا
لَكِنَّ قَوْسَ الْخَطُوبِ تَرشُقُنِي
وَخُبْرُ حَالِي كَخُبْرِ حَالَتِهِ
قَدْ عَدَلَ الدَّهْرُ بَيْنَنَا فَأَنَا
لَا هُوَ يَسْتَطِيعُ فَكَّ مِرْوَدِهِ
وَلَا مَجَالِي لِضَيْقِ ذَاتِ يَدِي
فَهَذِهِ قِصَّتِي وَقِصَّتُهُ

◦ ◦ ◦

إِيه : كلمة يُستزاد بها الحديث . والتمويه : الكذب ، وهو في الحديث
بالتعمية ، وقد موّه عليه ، إذا ختيل له أنه على شيء وهو على ضده ، وأصل
التمويه الصَّغْل ، كأنَّ على ألفاظه المموّهة صقالة ، وهو من لفظ الماء . المشعر :
المزدلفة ، وهو جمع ، سُمِّيَ مشعراً لأنه من علامات الحج ، وكلَّ علامات الحج
مشاعر ، والمشعر والمنسك : موضع ذبح الهدى بمكة المنفصل ، سُمِّيَ مشعراً ، لأنه
شعر أنه حرام كالبيت . الناسكين : الحجَّاج الذين يُشعرون الهدى وما يُنجر ،
أُنسك ونسكاً مَنْسكاً ونسكاً ونسكاً ، إذا ذبح الأُسك ، وأصلها ذبائح

الجاهلية ثم سُميت الأضاحي، والناسك أيضاً: الزاهد. خيف: موضع بمي. قوله: «ساعفتي»: ساعدتني. تصدّيت: تعرّضت. غالما: أهلكتها. الخطوب: الأمور الشداد. ترشفتي: تصيبتني. بمصميات: بسهام قاتلة. بؤس: شدّة حال. ضني: ضعف ومرض. وهو أنا، أي هو مثلي في ضيق الحال. مجالى: موضع تصرّفتي. ذات يدي: مالى، وذات اليد ما يملك. العفو: الغفران. جنى: أذنب. قصّتي: حديثي، يقول: فانظر إلينا بعين الشفقة والرحمة، وأصلح بيننا بما ننصرف به شاكرين لك، وهب لنا ما نُثني به عليك، وجعل التّنظر عاملاً في الجميع، لأن من وجوه التّنظر الإصلاح بينهم والتكرّم عليهم.

* * *

فلما وعى القاضي قصصهما، وتبين خصائصهما وتخصّصهما؛ أبرز لهما ديناراً من تحت مصلاه، وقال لهما: اقطعاً به الخصاص وافصلاه. فتلقّفه الشيخ دون الحدّ، واستخلصه على وجه الجدّ لا العبث، وقال للحدّث: نصفه لي بسهم مبرّتي، وسهمك لي عن أرض إبرّتي، ولست عن الحقّ أميل، فقم وخذ الميل. فمرا الحدّث لما حدّث اكتباب، واكفهر على سماه سحاب، وجم له القاضي، وهيج أسفه على الدينار الماضي؛ إلاّ أنه جبر بالفتى وببلاه، بدريهمات رضى بها له، وقال لهما: اجتنبا المعاملات، وادريا المخاصمات، ولا تحضرا في ملحّكمات، فما عندي كيس الغرامات.

فَهَضًا مِنْ عِنْدِهِ ، فَرِحِينَ بِرِفْدِهِ ، مُفْصِحِينَ بِحَمْدِهِ ،
وَالْقَاضِيَ مَا يَنْجُبُو ضَجْرَهُ ، مُذْبَعْنَ حَجْرَهُ ، وَلَا يَنْصُلُ كَمْدَهُ ،
مُذْرَشَحَ جَلَدَهُ .

• • •

قصصهما ، أى حديثهما ، وهو جمع قصة . خصاصتهما : فقرهما . تخصصهما :
رفعتهما واتقياهما ، وقد تخصص الرجل ، إذا اتقبض عن العامة وتشبه بالخاصة .
أبرز : أخرج . مصلاه : بساطه الذى يصلّى عليه . افصلاه : اقطعه وأزياه .
استخلصه : حازه لنفسه خالصاً . الجِدّ : التحقيق . العبث : الهزل . سهم : نصيب .
ميرتى : إكرامى الذى وصلنى به القاضى . أميل : أخرج وأعدّل عنه . عرا :
قصد ونزل به . حدث : ظهر . اكتتاب : حُزن وهم . وجَم : غضب ، والوجوم :
السكوت على غضب . هيج : حرّك . أسفه : حزنه . باله : فكره . بلباله : حزنه
ووسواسه . رضخ : كثر العطاء . اجتنبا : باعدا . المعاملات : العاوضات
والعوارى . ادركا : ادفعا . كيس : وعاء الدراهم . رِفده : عطاؤه . ينجبو ضجره :
يسكن غضبه : بضّ حجره : رشحت كفه . قال الأخطل :

كَزَمَ الْيَدَيْنِ مِنَ الْعَطِيَّةِ مَمْسِكٌ مَا إِنْ تَبِضَّ صَفَاتُهُ بِلَالٍ^(١)

ينصل كمده : يزول حزنه . الجلمد : الصخر الصّاب ، كنى به عن كفه ؛ وأنه

بخيل ، ويد البخيل تشبه بالحجر ، وقال جرير :

كَأَنَّمَا خَلِقَتْ كَفَاهُ مِنْ حَجَرٍ فَلَيْسَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَالذِّهْدَى عَمَلٌ^(٢)
يرى النّيم فى برّ وفى بحرٍ مخافة أن يرى فى كفه بلالٌ

(١) ديوانه ١٥٩ .

(٢) لم يرد البيتان فى ديوانه

وقال ابن عبد ربه :

يَرَاةٌ غَرَنِي مِنْهَا وَمِيضُ سَنَاءٍ حَتَّى مَدَدْتُ إِلَيْهِ الْكَفَّ مَقْتَبَسًا^(١)
فَصَادَفَتْ حَجْرًا لَوْ كُنْتُ تَضْرِبُهُ مِنْ لُؤْمِهِ بِمِصَا مُوسَى لَمَا انْبَجَسَا
كَأَنَّمَا صِيغَ مِنْ لُؤْمٍ وَمِنْ كَذِبٍ فَكَانَ هَذَا لَهُ رُوحًا وَذَا نَفْسًا

أين هذه الألف من التي ذكر حجية بن المضرب، حين قال :

أَنَاسٌ إِذَا مَا الدَّهْرُ أَظْلَمَ وَجْهَهُ فَأَيْدِيهِمْ بِيضَةٌ وَأَوْجُهُمْ غُرٌّ
يَصُونُونَ أَحْسَابًا وَمَجْدًا مَوْثَلًا يَبْدُلُ الْكَفَّ دُونَهَا الْمَزْنَ وَالْبَحْرُ
فَلَوْلَا مَسَّ الصَّخْرَ الْأَصْمُ أَكَنَّهُمْ أَفَاضَ يَنْبِيعَ النَّدَى ذَلِكَ الصَّخْرُ

وقال أبو الشيص :

إِنَّ الْأَمَانَ مِنَ الزَّهْمَانِ وَرَيْبِهِ بِعَقَبِ شَطَا بِحْرِكَ الْفِيَاضِ^(٢)
بِحَرٍّ يَلُودُ الْمُتَضَوْنَ بِسَيْلِهِ قَمَّ الْجُدَاوِلُ مَتَرَعُ الْأَحْوَاضِ
لَأَبِي مُحَمَّدٍ الْمُؤَمَّلِ رَاحَتَا مَلَكٍ إِلَى أَعْلَى الْمَلَا نَهَاطِ
فَيَسُدُّ تَدْفِقَ الْبَلْفَى لَصَدِيقِهِ وَيَدُّ عَلَى الْأَعْبَادِ سَمَّ قَاضِ

وقال أبو تمام :

تَمُودُ بَسَطَ الْكَفَّ حَتَّى لَوْ أَنَّهُ دَعَاهَا لَقَبِضَ لَمْ تَجِبْهُ أَنَامُهُ^(٣)

وقال البحتري :

قَدْ قَلْتُ لِلنَّيْثِ الرَّكَّامِ وَتَلَجَ فِي إِبْرَاقِهِ، وَأَلَحَّ فِي إِرْعَادِهِ^(٤)

(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ٧٦
(٤) ديوانه ٧٠٣

(١) العقد ٦ : ٢٩٥ .
(٣) ديوانه ٢٣٢

لا تعرضنَّ لجعفرٍ متشبَّهًا بندى يديه فلستَ من أنداده
الله شرفه ، وأعلى ذكره وراه غيثَ بلاده وعباده

وقال ابن الرومي :

مُقَبِّلُ ظهر الكف وهاب بطنها له راحةٌ فيها الحطيمُ وزمزمُ
فظاهرها للناس ركنٌ مقبَّلٌ وباطنها عينٌ من الجود عَيْلُمُ

حَتَّى إِذَا أَفَاقَ مِنْ غَشِيَّتِهِ ، أَقْبَلَ عَلَيَّ غَاشِيَتَهُ وَقَالَ : قَدَّ
أَشْرَبَ حِسِّي ، وَيَأْنِي حَدْسِي ؛ أَنَّهُمَا صَاحِبَا دَهَاءٍ ، لَأَخْصَمَا أَدْمَاءٍ ،
فَكَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى سَبْرِهِمَا ، وَاسْتَنْبَاطِ سِرِّهِمَا ! فَقَالَ لَهُ نَحْرِي رُ
زُمْرَتِهِ ، وَشَرَارَةُ جَمْرَتِهِ : إِنَّهُ لَمْ يَتِمَّ اسْتِخْرَاجُ خَبْنِهِمَا إِلَّا بِهِمَا ،
فَقَفَّاهُمَا عَوْنًا يُرْجِعُهُمَا إِلَيْهِ ، فَلَمَّا مَثَلَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، قَالَ لَهُمَا : اصْدُقَانِي
سَنَ بَكَرِكُمَا ، وَكَكُمَا الْأَمَانُ مِنْ تَبِعَةِ مَكْرِكُمَا . فَأَحْجَمَ الْحَدِيثُ
وَاسْتَقَالَ ، وَأَدَمَ الشَّيْخُ وَقَالَ :

قوله : «غشيتته» ، أى ذهاب عقله بأن يُعَمَى عليه . وغاشيته : زواره ومن
يفشى موضعه . أشرب : دُوخِلَ : حِسِّي : إدراكى وفهى . نَبَأْنِي : حَدْسْنِي .
وأخبرنى . حَدْسِي : ظَنِّي ، قال الفراء رحمه الله : حَدَسْتُ أَحْدِسُ ، إِذَا قَلْتُ فِي
الشَّيْءِ بِرَأْيِكَ . غيره : حَدَسْتُ : ظَنَنْتُ ظَنًّا بَلَفْتُ مِنْهُ غَايَةَ الشَّيْءِ فِي عَدَدِهِ أَوْ

وزنه ، وأصله من قول العرب : بلغت الحدس ، أى الشيء الذى تطلبه الملاقاة .
والدهاء فى الرجل : الحدق والتبصّر فى الأشياء . لاختصاص ادّعاء ، أى ليس بينهما
ادّعاء على الحقيقة فيختصمان فيها . سبّرها : اختبارها . استنباط : استخراج .
نحّير : حاذق . زهرته : جماعته ، وجعله شرارة ؛ لنفوذ ذهنه واتقاده ، ولذلك
يسمى نحّيراً ، أى ماهراً بالأشياء كلها ، كأنه لإدراكه وفهمه بالأشياء ينحّرها بظنّه
الصادق . خبئها : خفى ما عندها . قفاها : أتبعها . والعون : الشرطى ، لأنه
يعين من يتصرّف له . مثلاً : وقفاً ، يقال : مثل الشيء ، فهو مائل ، إذا قام
وانتصب ، وإذا طوى بالأرض أو ذهب ، وهو من الأضداد . سنّ بكر كما :
حقيقة خبر كما . والبكر : الفتى من الإبل ، وسنه : مبلغ عمره ، لأنّ بالسنّ يعرف كم
بلغ من العمر ، ولنظّم المثل « صدقنى سنّ بكره » ، وروى البكرى عن ابن الأعرابى
أن رجلاً سأم رجلاً بكرّاً على أن يشتريه مسنّاً ، فقال البائع : هذا جمل ؛ بكر
له ، وقال المشتري : هذا بكر ، فقال البائع : بل هو مسنّ ، فبينما هما يتنازعان
إذ نفر البكر ، فقال صاحبه : ليسكن نفاره : « هدع هدع » ، وهى كلمة من العرب
يسكن بها صغار الإبل عند نفارها ، ولا تقال للكبار ، فقال المشتري عند ذلك :
صدقنى سنّ بكره . تبعة ؛ شُرحت فى الصدر . أحجم : تأخر فزعاً . أقدم :
تقدم متشجعاً . استقال : طلب الإقالة .

* * *

أنا المَرْوَجِيُّ وَهَذَا وَلَدِي وَالشُّبْلُ فِي الْمُنْخَبِرِ مِثْلُ الْأَسِيدِ
وَمَا تَمَدَّتْ يَدُهُ وَلَا يَدِي فِي إِبْرَةِ يَوْمًا وَلَا فِي مِرْوَدِ
وَإِنَّمَا الدَّهْرُ الْمَسِيُّ الْمُعْتَدِي مَالَ بَنَّا حَتَّى غَدَوْنَا نَجْتَدِي
كُلَّ نَدِي الرَّاحَةِ عَذْبِ الْمُرْدِ وَكُلَّ جَمْعِ الْكَفِّ مَغْلُولِ الْيَدِ

بِكُلِّ فَنِّ وَبِكُلِّ مَقْصِدٍ بِالْحِدِّ إِنْ أَجْدَى وَإِلَّا بِالْدِدِ
لِتَجْلِبَ الرَّشْحَ إِلَى الْحِظِّ الصَّدَى وَتَهْفِدَ الْعُمَرَ بِعَيْشِ أَنْكَدِ
وَالْمَوْتُ مِنْ بَعْدِ لَنَا بِالْمَرْصَدِ إِنْ لَمْ يَفَاجِ الْيَوْمَ فَاجَى فِي غَدِ

• • •

الشَّيْلُ : ولد الأسد . المخِيرُ : التجربة والخبرة . تعَدَّتْ : ظلمت ، والتمعدى :
الظلم المجاوز الحد في الظلم . مال بنا ، أى حطنا . نجتدى : نسأل الناس الجدا ، وهو
المطاء . ندى الراحة : كريم الكف . وجند الكف ، ضده ، وأراد أن يسأل كل
كريم سهل المطاء ، وكل لثيم صعبه ، وأصل الجمودة اقتباس الشعر ، ثم استعيرت
تقبض الكف من اللؤم ، ومثله مغلول اليد ، أى كأن يده محبوسة بقل اللؤمها ،
والسائل كأنه يحاول بسطها بالجود فيجدها محبوسة بقل اللؤم ، وفي الكتاب
العزيز : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾^(١)
فهذا نهى عن التبذير .

وقال حبيب في قصيدة يمدح بها حفص بن عمر الأزدي ويذكر الجمودة ، وهى :

يَرَى الْوَعْدَ أَخْزَى الْعَارِ إِنْ هُوَ لَمْ تَكُنْ مَوَاهِبُهُ تَأْتِي مَقْدَمَةَ الْوَعْدِ^(٢)
فَلَوْ كَانَ مَا يَعْطِيهِ غَيْثًا لَأَمْطَرَتْ سَحَابُهُ مِنْ غَيْرِ بَرَقٍ وَلَا رَعْدِ
مَنْ الْقَوْمِ جَعَدْتُ أبيضُ الْوَجْهِ وَالنَّدَى وَليْسَ بِنَانٍ يَجْتَدِي مِنْهُ بِالْجَعْدِ

(١) سورة الإسراء ٢٩

(٢) ديوانه ٣٠ :

وقال البحرى :

صنعتني عن معاشرٍ لا أسمى
من جمادٍ الأكَفِّ غيرِ جمادٍ
أولَّيهم إلاَّ عَدَاةَ سِبَابِي (١)
وغضابِ الوجوهِ غيرِ غِضَابِ
خطرُوا خطرةَ الجَهَامِ وسارُوا
في نواحي الظنونِ سَيْرَ السَّحَابِ

وقال أيضاً في نحوه :

وخلفني الزمانُ على أناسٍ
لهم حُلٌّ حَسَنٌ فَمِنْ بِيضٍ
وجوهمُ وأيديهمُ حديدٌ (٢)
وأخلاقٌ قَبِحَةٌ فَمِنْ سُودٍ
أناسٌ لو تَأَمَّلْتَهُمْ لَبِيدٌ
بكى الخلفَ الذي يشكُّو لبيدٌ

قوله «الدد» : ضد الجدة ، وهو اللهو واللعب ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : «لست بمن ددر ولا الدد مني» ، أى لست من باطل ولا الباطل منى أجدى : نفع . الحظ : البخت والنصيب . والصدى : العطشان ، وأراد أن حظّه فى الدنيا قليل ، فهو سعى له ليحلب رزقاً يكثر به حظّه . ننفذ : تتمم . أنكد : مشثوم وكل ما جاب شراً فهو أنكد ونكد . والمرصد : الموضع الذى ترتقب فيه من تريد أخذه ، وقد رصدته رصداً ترتقبته . يفاج : يأت على غفلة ، وأصله فاجأ بالهمز ، فسّله .

فقال له القاضى : لله درك ، فأعذب نفثاتِ فيك ، وواها
لك لولا خِداعُ فيك ، وإني لك لمن المنذرين ، وعليك من

(١) ديوانه ٨٦

(٢) ديوانه ٥٨١

الْحَذِرِينَ ، فَلَا تَمَّا كِرْ بِمَدَّهَا الْحَاكِمِينَ ، وَاتَّقِ سَطْوَةَ الْمُتَحَكِّمِينَ ،
فَمَا كُلُّ مُسَيِّطَرٍ مُيْقِيلٌ ، وَلَا كُلُّ أَوَانٍ يُسْمَعُ الْقِيلَ .

فَمَا هَذِهِ الشَّيْخِ عَلَى اتِّبَاعِ مَشُورَتِهِ ، وَالْارْتِدَاعِ عَنْ تَلْبِيسِ
صُورَتِهِ . وَفَصَلَ عَنْ جَهَّتِهِ ، وَانْخَلَّتْ يَلْمَعُ مِنْ جَبَّتِهِ .

قال الحارث بن همام: فلم أرَ أعجبَ منها في تصاريفِ الأسفارِ ،
ولا قرأتٍ مثلها في تصانيفِ الأسفارِ .

* * *

قوله: «لله درك» ، أى ما أحسن كلامك ، والدَّرُّ أصله اللبن ، وكأنه سُمِّيَ
بِحكاية صوته عند الحلب . والله ، أصله القسم ، ولا تدخل اللام في القسم إلا لأعلى
اسم الله تعالى ، والتعجب معها لازم ، فإذا قال الذى يسمع صوت الحلب لصاحب
الناقة: لله درك ! فكأنه قال: والله إن درك هذا لكثير ، ثم استعير للفصيح في
كلامه ، ولكل من أحسن فى شيء ، فكأنه قيل: ما أحسن ماجئت به! وقيل:
معناه لله اللبن الذى شربته من أمك ، قال الفراء رحمه الله: ربما قالوا: درك ، ولم
يقولوا: لله درك ، وأنشد:

دَرَّ دَرَّ الشَّبَابِ وَالشَّعْرِ الْأَسْوَدِ وَالضَّامِرَاتِ تَحْتَ الرَّجَالِ

قوله: «نفثات» ، أى كلمات . واهأ: عجبا . والمنذر: المعلم بما يخاف . تماكر:
تمخادع . سطوة: بطشة . المتحكم: الذى يتحكم بما شاء فيمثل حكمه . مسيطر:
أمير مساطط . يقيل: يفقر الالة . أوان: وقت . عاهده: حاله . مشورته: أخذ
رأيه . الارتداع: الكف . تلبيس: تخليط . صورته: قصته . فصل: زال .

الخنز : الخداع . يلع : يضيء ، يريد أنه انفصل عنه وعلى وجهه علامة الفدر ، وأن يمينه التي حلف له كاذبة ، وأوّل مَنْ نظم في هذا المعنى الشماخ حين قال :

أَتَنِي تَمِيمٌ قَضَاهَا بِقَضِيئِهَا تَمَسَّحَ حَوَلِي بِالْبَيْعِ سِبَاهَا
يَقُولُونَ لِي : أَحْلَفُ وَلَسْتُ بِجَاهِفِ أَخَادَعُهُمْ عَنْهَا لَكَيْمًا أَنَالَهَا
فَفَرَّجَتْ هَمَّ النَّفْسِ عَنِّي بِحَلْفَةِ كَمَا شَقَّتْ الشَّقَاءَ عَنِّي جَلَاهَا

ومن الملح في اليمين الفاجرة ، قول ابن الرومي :

وَإِنِّي لَدُو حَلْفٍ كَاذِبٍ إِذَا مَا اسْتَمَحْتُ فِي الْمَالِ ضَيْقُ
وَهَلِي مِنْ جَنَاحٍ عَلَى مَعْسَرٍ يَدَافِعُ بِاللَّهِ مَا لَا يَطِيقُ
وَقَالَ فِيهِ أَيْضًا :

إِذَا حَلْتُ عَلَى ضَيْقِ دُيُونِي وَبَاكَرَنِي التَّجَارُ وَخَوْفُونِي
دَفَعْتَهُمْ بِنِ لَوْ شَاءَ أَدَى حَقُوقَهُمْ إِلَيْهِمْ مِنْذِرِينِ

ولِدَعِيل :

سَأَلُونِي الْيَمِينَ فَارْتَمْتُ عَنْهَا كَيْ يَفْرُوا بِذَلِكَ الْإِرْتِيَاعِ^(١)
ثُمَّ أَرْسَلْتُهَا كَمُنْحَدَرِ السَّيْلِ تَدَلِي مِنَ الْمَكَانِ الْيَفَاعِ
وَأَنشَدَ أَبُو عَلِيٍّ :

لَا شَيْءَ يَدْفَعُ حَقَّ خَصْمٍ شَاغِبٍ إِلَّا كَلْفَ عَبِيدَةَ بْنِ سَمَيْدَعِ
يَمْضِي الْيَمِينَ عَلَى الْيَمِينَ لِجَاةِ عَضَّ الْجُوحِ عَلَى الْجَامِ الْمُقَدِّعِ
فَإِذَا يَذْكُرُ حَلْفَةَ أَصْفَى لَهَا وَإِذَا يَذْكُرُ بِالتَّقَى لَمْ يَسْمَعِ

قوله: «تصارييف»، أراد التصريف بالجولان في البلدان. والأسفار: الأول :
جمع السفر في البلاد، والثاني : جمع سفر، وهو الكتاب، قال الفراء رحمه الله:
الأسفار: الكتب العظام. والتصانيف: التأليف المنوعة، والمصنف الذي فيه
أنواع شتى.

المقامة التاسعة وهي الإسكندرانية

قال الحارث بن همام : طحاني مَرَحُ الشَّبَابِ ؛ وَهَوَى
الْاِكْتِسَابِ ، إِلَى أَنْ جُبْتُ مَا بَيْنَ فَرْغَانَةَ وَغَاثَةَ ، أَخُو ضُ النَّمَارِ ،
لِأَجْنِي النَّمَارِ ، وَأَقْتَحِمَ الْأَخْطَارَ ، لِكُنَى أَدْرِكَ الْأَوَطَارَ ،
وَكَنْتُ لَقِفْتُ مِنْ أَفْوَاهِ الْعُلَمَاءِ ، وَتَقِفْتُ مِنْ وَصَايَا الْحُكَمَاءِ ،
أَنَّهُ يَلْزَمُ الْأَدِيبَ الْأَرِيبَ ، إِذَا دَخَلَ الْبَلَدَ الْغَرِيبَ ، أَنْ يَسْتِمِيلَ
قَاضِيَهُ ، وَاسْتَخْلِصَ مَرَاضِيَهُ ، لِيَسْتَدَّ ظَهْرَهُ عِنْدَ الْخِصَامِ ،
وَيَأْمَنَ فِي الْغُرْبَةِ جَوْرَ الْحُكَّامِ ؛ فَاتَّخَذَتْ هَذَا الْأَدَبَ إِمَامًا ،
وَجَعَلَتْهُ لِمَصَالِحِي زِمَامًا ، فَأَدْخَلْتُ مَدِينَةَ ، وَلَا وُلِجْتُ عَرِينَةَ ،
إِلَّا وَامْتَزَجْتُ بِحَاكِمِهَا امْتِزَاجَ الْمَاءِ بِالرَّاحِ ، وَتَقَوَّيْتُ بِعِنَايَتِهِ
تَقَوَّى الْأَجْسَادَ بِالْأَرْوَاحِ .

* * *

طحنا بك قلبك ووهمك طحوا وطحنيا : ذهب بك ، وطحا الله الأرض
ودحاها : بسطها . ابن الأنباري : طحا قلبه في الهوى واللهو ، إذا تطاول وتمادى ، قال .
علقمة :

* طَحَا بِكَ قَلْبِي فِي الْحِسَانِ طَرُوبُ *

مرح الشباب : نشاط الفتوة . جُبْتُ : قطعت ومشيت .

[ذكر فرغانة]

فرغانة : مدينة في أقصى خراسان ، وكان فيها بيتٌ يُسمى هيكَل الشمس ، بناه فارس الملك ، وخرَّبه المعتصم ، وبها قُتِل قتيبة بن مسلم الباهلي أمير خراسان سنة ثلاث وخمسين ، وبين سمرقند ثلاثة وخمسون فرسخاً . قال اليعقوبي : من سمرقند إلى أسروشنة خمس مراحل شرقاً ، ومن أسروشنة إلى فرغانة مرحلتان ، ومدينة فرغانة التي ينزلها الملك يقال لها كاسان ، وهي مدينة جليلة القدر ، عظيمة الأمر ، وكلُّ هذه المدن مضافة إلى عمل سمرقند . وكان أنوش . وان بنى فرغانة ، ونقل إليها من كل بيت قوماً ، وسماها أزهرخان ، أي من كل بيت .

[ذكر غانة]

وغانة : بلد من بلاد السودان ، وإليها ينتهي التجار ، والمدخل إليها من سجدلماسة ورن سجدلماسة إليها مسافة ثلاثة أشهر ، ومن غانة إلى سجدلماسة شهر ونصف ، ودون ذلك ، وسبب ذلك أن الرِّفاق تتجهز إليها من سجدلماسة بالمتاع والأثقال ، فتباع في غانة بالتُّبر ، فمن سافر إليها بثلاثين حملاً يرجع منها بثلاثة أحمال ، أو بحملين : واحد لركوبه ، وثانٍ للماء بسبب المفازة التي في طريقها ، حدثنى غيرٌ واحدٍ من تجارها أنهم يقطعون المفازة في ستة عشر يوماً ، لا يرون فيها ماء إلا على ظهور الإبل ، فأثمان أحمال الثلاثين حملاً يجتمع فيها من التُّبر ما يجعل في مزود واحد ، فيطوون المراحل للخفَّة . وغانة بلد مملكة السودان ، وانتشر الإسلام في أهلها ، وبها مدارس للعلم ، وبها من تجار المغرب كثير يدخلون للتجارة فيصيبون الخصب والأمن وكثرة المتاجر ، فيشترون بها خدماً للتسري ، ويقومون بها عند أميرها في غاية الكرامة ، والخدم فيها قد جعل الله فيهن من

الخصال الكريمة في خلقهم وخلقهم فوق المراد، من ملاسة الأبدان، وتفتق السواد،
وحسن العينين، واعتدال الأنوف، وبياض الأسنان، وطيب الروائح.

[مما ورد من الشعر في وصف السواد والبياض]

وكان ابن الرومي وصف واحدة منهن بقوله :

تذكرك المسك والغوالى والنَّدْ ذواتُ التَّسِيمِ والعَبَقِ
ليست من العَبَسِ الأَكْفِ ولا الفُلُجِ الشَّاهِ الخبائثِ العَرَقِ
أَكسبها الحَبَّ أَنها صُيِّغَتْ صِبْغَةَ حَبِّ القُلُوبِ والحدَقِ
يفترِّذُكَ السَّوَادُ عن يَقِيٍّ من نَعْرِها كاللَّيْلِ النَّسَقِ
كَأَنها والمِزاحِ يضحكها ليلُ تعرَى دُجَاهَ عن فَلَاقِ
لها حِرٌّ يستعيرُ وقَدَتَهُ من قلبِ صبِّ وصدْرِ ذِي حَنَقِ
يزداد ضيقاً على المراسِ كما تزداد ضيقاً أنشوطَةُ الوَهَقِ
غصن من الأبنوس رُكَّبَ في مؤزَّرٍ معجِبٍ ومنتطِقِ
وقال الشريف الرضى :

أحْبَبُكَ يالونَ السَّوَادِ فَإِنِّي رأيتُكَ في العينينِ والقلبِ تَوَّأماً^(١)
وما كان سَهْمُ العينِ لولا سَوَادُها ليبلغ حَبَّاتِ القُلُوبِ إِذَا رَمَى
إِذَا كُنْتَ تَهْوَى الظَّبِيَّ أَلَمَى فَلَائِمٌ جنونى على الطَّبِيِّ الذى كلَّه لَمَى
وقال ابن مسleme :

يكونُ الخِلالُ في خَدِّ قَبِيحٍ فيكسوه الملاحاةَ والجَمالاً

فكيف يُلامُّ مشغوفٌ على مَنْ يراها كَلَمًا في العَيْنِ خَالًا!
وله أيضا :

لام العوازلُ في سوادِ فاحمةٍ كأنَّها في سوادِ القلبِ تمثالُ
وهامِ بائِئالِ أقوامٍ وما عَلِمُوا أنَّ أهيْمُ بشخصٍ كلُّه خالُ
ولابنِ رباح :

وسوداءِ الأديمِ إذا تبدَّتْ يرى ماءَ النعيمِ جرى عليه
رآها ناظريُّ نصبا إليها وشبههُ الشَّيءُ مُنجذبٌ إليه
ولابنِ رشيقي :

دعا بِكِ الحِسينِ فاستجِبي يامسكُ في صبغةٍ وطيبِ^(١)
تبيهِ على البيضِ واستطِلي تيهَ شبابٍ على مشيبِ
ولا يرعكِ اسودادُ لونِ كُمَّلةِ الشَّادينِ الرَّيبِ
فإنما الثُّورُ عن سوادِ في أعينِ الناسِ والقُوبِ

قال ابن رشيقي : أخذته من قول الآخر ، أنشده الجاحظ :

مشبهاتُ الشَّبابِ والمسكِ تفديهنَّ نَفْسِي من الرَّدَى والخطوبِ
كيف يهوى الفتي اللبيبُ وصالَ الببيضُ ، والبييضُ مشبهاتُ المشيبِ
وأخذ بيته الآخر من قول الآخر ، أنشده الجاحظ :

وإنَّ سوادِ العينِ في العينِ نورُها وما لبياضِ العينِ نورٌ فيعلمُ
فأخذه أيضا أبو الطيب ، فقال في كافور وأحسن :

(١) الغيث المنسجم ٢ : ١٦١ ، معاهد التنصيص ٢ : ٢٣ ، ديوان الصبابة (على هامشه
تزيين الأسواق) ٦٨ .

فجاءت بنا إنسانَ عينِ زمانه وغلّت بياضاً خلفها وماقياً^(١)
ولابن الجهم :

وعائب للشمر من جهله مفصلٌ للبيض ذى محك^(٢)
قولوا له عني : أما تستحي ! نَـنْ يَجْمَلُ الكافور كالمسك !

والسابق لهذا المعنى أبو حفص الشطرنجي ، والناس تبع له حيث قال :
أشبهك المسك وأشبهته قائمة في لونه قاعدة
لاشك - إذ لونكما واحدٌ أنكما من طينةٍ واحدة
على أن العباس^(٣) بن الأحنف معاصره ، قال :

أحبّ النساء السود من أجل تكتم

ومن أجلها أحببت ما كان أسوداً
فجئني بمثل المسك أطيب نكهةً وجئني بمثل الليل أطيب مرقداً
أخذ بيته الأول من قول ابن الأعرابي :

أحبُّ لحبها السودان حتى أحبّ لحبها سود الكلاب
وقال ابن الرومي في تفضيل السواد على البياض :

وبعض ما فضل السواد به والحق ذو سلم وذو نفاق
ألا يعيب السواد خلكته وقد يعاب البياض بالبهق

وهذه الأقوال كلها على استحسانها اعتذارات واقتدارات من الشعراء على
تحسين القبيح ، والأمر المجمع عليه تفضيل البياض .

(١) ديوانه ٤ : ٢٨٧

(٢) ديوانه ١٦٢ (عن الشريفي)

(٣) كذا في ب ، وفي ط ، ١ : ٥ على ابن العباس ، تصحيف ، ولم أجد الأبيات في

ديوان عباس بن الأحنف .

(٢٢ - شرح مقامات الحريري ١)

قال الجاحظ: العرب تمدح بالبياض، وتهجو بالسواد، وربما مدحوا بالسواد، ولكن أصل ما يبنون عليه أمرهم ذمه، وأنشد:

لهم ديباجةٌ عُرِفَتْ قديمًا بياضٌ في الوجوه وفي الجلودِ
وأحسن كشاجم فيما قصد إليه بقوله:

يامشيهما في فعله لونه لم تعد ما أوجبت القسمه^(١)
خاتك من خلتك مستخرج والظلم مشتق من الظلمة^(٢)

قوله: «جيب ما بين فرغانة وغانة»، ماها هنا بمعنى الذي، كأنه قال: جيب الذي بين فرغانة التي هي أقصى المشرق، وغانة التي هي أقصى المغرب من البلاد والقفار والبحار لكسب المال، فاهى التي أوجبت ما بين البلدين ما ذكر أن يعم بالمشى؛ ولوسقطت لم يلزم العموم، وكأنه يشير بهذا التعبير إلى قول حبيب:

سلي هل عمرت القفر وهو سباسب^٣ وغادرت ربعي من ركابي سباسباً^(٣)
وغربت حتى لم أجد ذكر مشرقٍ وشرقت حتى قد نسيت المغارباً

قوله: «أخوض الغار»، أي أدخل المياه الغزيرة فأجوزها. أقتحم الأخطار، أي أترامى في المخاوف. والخطر: الغرر. والأوطار: الحاجات. وقال أبو عمر التسطلي^(٤) فيما يتعلق بهذا:

يخوفني طول السقام وإنني لتقبيل كف العامري سفير
دعيتني أريد ماءً من الغار آجناً إلى حيث ماء المكرمات تميز

(١) ديوانه ١٧، وفيه: «في لونه فله».

(٢) في الديوان: «خاتك من خاتك».

(٣) ديوانه ١٧، والسباسب: القفار الفسيحة.

(٤) هو أبو عمر أحمد بن محمد بن العاص بن أحمد بن جراح بن عيسى بن دار، المعروف

بأبي جراح القبطي، في طبقات أبو عمرو، خطاً يذكر في بعض تراجمه؛ وقد نبه إليه الدكتور محمود مكي في حواشيه على ديوان ابن جراح ص ٢١، والأبيات في ديوانه ٢٩٨.

ألم تلعى أن الثواء هو النوى وأن بيوت العاجزين قبور
وأن خطيرات المهالك ضمن لراكبها أن الجزء خطير

وقال النابغة الجعدي :

إذا المرء لم يطلب معاشاً لنفسه

شكا الفقر أو لام الصديق فأكثر^(١)

فسير في بلاد الله والتمس القنى تمش ذا يسار أو تموت فتعذراً

وقال ابن سارة :

سافر فإن القنى من بات مفتتحاً قفل المصاح بفتح من السفر

إن شئت خضرتها يا ابن الرخاء فكن

في طى عمر الفيافي نأى الحصر

ولا يصدنك عن أمر تصعبه قد ينبع الكوثر السلسال من حجر

لا بد أن يقع المطلوب في شرك ولو بنى وكرة في دائرة القمر

[باب في الحض على السفر وترك العجز]

ومما ينتظم في باب الحض على السفر وترك العجز قولهم : لا ينبغي للعاقل
أن يكون إلا في إحدى المنزلتين ، إما في الغاية من طلب الدنيا ، وإما في الغاية
من تركها ، ولا ينبغي للعاقل أن يرى إلا في أحد مكانين ، إما مع الملوك مكرماً ،
وإما مع العباد متبتلاً ، ولا يعد الغرم غرماً إلا إذا ساق غنماً ، ولا انعم غنماً إلا
إذا ساق غرماً ؛ ونظم هذا المعنى فقال :

ذِرِ الدُّنْيَا إِذَا لَمْ تَحْظَ فِيهَا وَكُنْ فِيهَا كَثِيرًا أَوْ قَلِيلًا^(١)
وَأَصْبِحْ وَاحِدَ الرَّجُلِينَ إِنَّمَا مَايَكَا فِي الْعَشَائِرِ أَوْ أَبْيَالًا

الأبيل : الراهب .

وفي كتاب الهند : من لم يركب الأهوال لم ينل الرغائب .

وفي التوراة : ابن آدم ، خُلِقْتَ مِنَ الْحَرَكَةِ إِلَى الْحَرَكَةِ ، فَتَحْرُكْ وَأَنَا مَعَكَ .

وفي بعض الكتب : امدد يدك إلى بابٍ من العمل ؛ أفتح لك باباً من

الرزق .

وقالوا : مَنْ ضَعُفَ عَنْ عَمَلِهِ أَتَكَلَ عَلَى رِزْقِ غَيْرِهِ .

وقال علي رضي الله عنه : الحرص مقدمة الكون .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لو فد عبد القيس : ما المروءة فيكم ؟ قالوا :

العفة والحِرْفَةُ .

ورثي عكرمة وراء نهر بئح ، فقيل له : ما جاء بك هاهنا ؟ فقال : بناتي .

وقال رجل لمعروف الكرخي : يا أبا محفوظ أتحرك لطلب الرزق أم أجلس ؟

قال : لا بل تحرك ، فإنه أصلح لك ، فقال : أتقول هذا ؟ قال : وما أنا قاتله

ولكن الله عز وجل أمر به ، قال لمريم عليها السلام : ﴿ وَهَزِّيْ إِلَيْكَ بِجِذْعِ

النَّخْلَةِ تَسَاقُطْ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِينًا ﴾^(٢) ولو شاء لأنزله عليها .

وأنشد الثعالبي :

ألم ترَ أن الله أوحى لمريم وهزّي إليك الجذع يساقط الرطب

(١) سقط الزند ١٣٧١ .

(٢) سورة مريم ٢٥

ولو شاء أن تجنيه من غير هزّها ، وجنته ، ولكن كل شيء له سبب
وقال موسى بن عمران عليه السلام : لا تلوموا السفر ؛ فإنّي أدركت فيه ما لم
يدركه أحد ؛ يريد أن الله كلّاه فيه .

ونظم هذا المعنى حبيب فقال :

إنّ موسى صلّى على روجه الله صلاةً كثيرةً القدس^(١)
صار نبياً وعظماً بعبّيته في جدوة للصلاة والقبس^(٢)

قال المؤمنون : لاشيء ألدّ من السفر في كفاية ؛ لأنك تحمل كل يوم في محلّة
لم تحلّها ، وتعاشر قوماً لم تعاشرهم .

الثعالبي : من فضائل السفر أن صاحبه يرى من عجائب الأمصار ، وبدائع
الأقطار ، ومحاسن الآثار ، ما يزيد علماً بقدرة الله ، ويدعوه إلى شكر نعمته .

وفي الأثر الصحيح : سافروا تصحّوا وتغنموا .

آخر : السفر يشدّ الأبدان ، وينشط الكسلان ، ويشهّي إلى الطعام .

آخر : ليس بينك وبين بلد نَسب ، فخير البلاد ما حملك .

قال ابن رشيّق : كتبت إلى بعض إخواني : مثل الرجل القاعد - أعزّك الله -
كمثل الماء الراكد ، إن ترك تغير ، وإن تحرك تكدر ، ومثل المسافر كالسحاب
الماطر ، هو لاء يدعونه رحمة ، وهو لاء يدعونه نقمة ، فإذا اتصلت أيامه ، ثقل
مقامه ، وكثر لوائه ، فاجمع لنفسك فرجة الغيبة ، وفرحة الأوبة ، والسلام .

وقال ابن رشيّق :

غِبْ عن بلادك وارحُ حسن مغبّةٍ إن كنت حقاً تشتكي الإقلاقاً^(٣)

(١) ديوانه ١٧٠ . والقدس : الطهارة

(٢) البنية : المطلب . الجدوة : الحرّة ، والصلاة ، التدفؤ .

(٣) نقله في التنف ٥٩

فالبدرُ لم يُجِئْ به إِدْبَارُهُ أَلَا يَسَافِرُ يَطْلُبُ الإِقْبَالَ
وقال أبو الطَّيِّبِ :

وما بلد الإنسان غير الموافقِ ولأهله الأذنون غير الأصادقِ^(١)
وقال البحتري :

وإذا ما تنكرت لي بلادٌ أو صديق فإني بالخيارِ^(٢)
وقال أبو الطَّيِّبِ :

إذا لم أجد في بلدةٍ ما أريده فعندي لأخرى عَزْمَةٌ وِرْكَابٌ
وقال إبراهيم بن العباس الصولي :

لا يمنعك خفض العيش في دعةٍ نزوعُ نفسٍ إلى أهلٍ وأوطانِ^(٣)
تلقى بكل بلادٍ إن حلت بها أهلاً بأهلٍ وجيراناً بجيرانِ

أى لا يمنعك الشوق إلى الوطن في الغربة من الاستمتاع ببلدة العيش ،
فالأرض واحدة ، والناس جنس واحد . وفي غير الحماسة :

لا يمنعك خفض العيش في دعةٍ من أن تبدل أوطاناً بأوطانِ
برفع «خفض» ، أى لا يمنعك عيشك الهنيء في بلدك أن تجول في البلدان ،
وترى الناس ، تستفيد النزهة والتجربة .

وقالوا : المسافر يسمع العجائب ، ويكشف التجارب ، ويحلب المكاسب .
أوحش أهلك إذا كان أنسك في إيمحاشهم ، واهجر وطنك إذا نبت نفسك عنه .
قيل لأعشى بكر : إلى كم ذا الاغتراب ؟ أما ترضى بالذعة ! قال : لودامت
الشمس عليكم يومين للتموها .

(١) ديوانه ٢ : ٣٢٠ .

(٢) ديوانه ٩٨٧ .

(٣) ديوانه ١٥١ ، ديوان الماني ١ : ٩٩٢ .

أخذه حبيب فقال :

وطولُ مُقامِ المرءِ في الحَيِّ مُخلِقٌ لذيّاجتئيه فاعترِبْ تتجددِ (١)
فإني رأيتُ الشَّمْسَ زِيدتْ مَحَبَّةً إلى النَّاسِ أَنْ لَيْستْ عَلَيْهِمُ بِسَرْمَدِ

وقال الحكماء : لا تُنال الراحة إلا بالتعب ، ولا تدرك الدعة إلا بالتصّب .

وقال حبيب :

على أنى لم أحوِ وَفرا مجَمَعاً ففزت به إلا بشملٍ مبددِ (٢)
ولم تُعْطِنِي الأيامُ يوماً مسكناً ألدَّ به إلا بنومٍ مُشرّدِ

وقال ابن عبد ربه : هل يجوز في عقل ، أو يمثّل في وهم ، أو يصحّ في قياس ، أن يُحصّد زرعٌ بغير بذر ، أو يثمر مالٌ بغير طلب ، أو تُجنى ثمرة بغير غرس ، أو يُورى زندٌ بغير قدح ! وقد يكون الإكداء مع الكد ، والخليفة مع الغيبة .

وقال الشاعر :

ومازلت أقطعُ عَرْضَ البلادِ من المشرقين إلى المغربين
وأدرع الخوفَ تحت الدُّجى وأستصحب الجُدَى والفرقدَيْن
وأطوى وأشرُّ ثوبَ الهمومِ إلى أن رجعتُ بخفي حُنَيْنِ

وقال ابن رسيق :

يُعْطَى الفَتَى فينالُ في دَعَةٍ ما لم ينل بالكُدِّ والتَّعَبِ (٣)
فاطْلُبْ لنفسك فَضْلَ راحِئِها إذ لَيْستِ الأشياءُ بالَطَّلِبِ
إن كان لا رزقٌ بلا سببٍ فرجاء ربِّكَ أعظمُ السَّبَبِ

وقال محمد بن يسير :

(١) ديوانه ١٠٠ ، ١٠١ .

(٢) ديوانه ١٠٠ ، وفيه : « ولو كنتي لم أحو » .

(٣) نقله في التنف ١١ .

قد يُرْزَقُ الْخَافِضُ الْمُقِيمُ وَمَا
وَيَحْرَمُ الْمَالُ ذُو الْمُطِيَةِ وَالرَّاءِ
شَدًّا لِعُنْسٍ رَحَلًا وَلَا قَتَبًا (١)
حَلَّ وَمَنْ لَا يَزَالُ مُغْتَرِبًا

وقال آخر :

قد يُرْزَقُ الْمَرْءُ لَمْ تَتَّعِبْ رِوَا حُلَّهُ
إِنِّي وَعَمْرُكَ مَا أَحْصَى ذَوِي حَقِّي
وَيَحْرَمُ الرَّزْقَ بِالْأَسْفَارِ وَالتَّعَبِ
الرِّزْقَ أُعَدِّي بِهِمْ مِنْ لَاصِقِ الْجَرْبِ

ولآخر :

أَلَا رَبَّ بَاغِيَ حَاجَةٍ لَا يَبْنَأُهَا
وَأَخْرَقَ تَقْضَى لَهُ وَهُوَ جَالِسٌ
أَخْر :

قد يُرْزَقُ الْمَرْءُ، لَأَمِنْ حُسْنِ حَيْلَتِهِ
مَامَسَّنِي مِنْ غَنَى يَوْمٍ وَلَا عَدَمٍ
وَيُصْرَفُ الرَّزْقُ عَنْ ذِي الْحَيْلَةِ الدَّاهِي
إِلَّا وَقَوْلِي فِيهِ : الْحَمْدُ لِلَّهِ

آخر :

لَوْ كَانَ بِاللَّبِّ يَزْدَادُ اللَّيْبُ غَنَى
لَكَدَنَهُ الرَّزْقُ بِالتَّسْطَاسِ مِنْ حِكْمٍ
لَكَانَ كُلُّ لَيْبٍ مِثْلَ كَأْفُورٍ
يُقْصَى اللَّيْبُ، وَيُعْطَى كُلُّ مَا خُورٍ
ومثل هذا قليل في كثير وإنما يحكم بالأغلب ، والنَّجْحُ مع الطلَبِ أَكْثَرُ،
والحرمان للعاجز أصح ، وشرح حبيب هذا المعنى فقال :

هَمَّ الْفَتَى فِي الْأَرْضِ أَغْصَانُ النَّبِيِّ
أَوْصَى بَعْضُ الْحُكَمَاءِ ابْنَهُ وَأَرَادَ سَفْرًا ، فَقَالَ : إِنْ تَكَّ تَدْخُلُ بِلْدَا لَا تَعْرِفُهُ ،
وَلَا يَعْرِفُكَ أَهْلُهُ ، فَتَمَسَّكَ بِوَصِيَّتِي تَنْفِقُ بِهَا ؛ عَلَيْكَ بِحَسَنِ الشَّمَائِلِ ؛ فَإِنَّهَا تَدَلُّ عَلَى
الْحَرِيَّةِ ، وَنَقَاءِ الْأَطْرَافِ فَإِنَّهَا تَشْهَدُ بِالْمُلُوكِيَّةِ ، وَنِظَافَةِ الْبِرِّزَّةِ فَإِنَّهَا تَشْهَدُ بِالنِّسَاءِ فِي
النِّعْمَةِ ، وَطِيبِ الرَّائِحَةِ فَإِنَّهَا تَظْهَرُ الْمُرُوءَةَ ، وَالْأَدَبَ الْجَمِيلَ فَإِنَّهُ يُكَسِبُ الْحُبَّةَ ،
وَلَيْسَ كَنْ عَقْلُكَ دُونَ دِينِكَ ، وَقَوْلُكَ دُونَ فِعْلِكَ ، وَلِبَاسُكَ دُونَ قَدْرِكَ ، وَالزَّم

(١) الأغانى ٥ : ٢١ ، من أبيات نسبها إلى ابن عبد الأسد

«الحياء والأئفة فإياك إن استحييت من الفظاظة اجتنبت الخساسة ، وإن أنفت من الغلبة لم يتقدمك نظير في مرتبة .

قوله : «لَفِفت» ، أخذت ، واللَّفَفُ : أخذ ما يرمى إليك بيدك . ثَقِفَتْ : قيدت ، ويُمدح الرجل الحازم به فيقال : فلان ثَقِفُ لَقِف . والأرْب : العاقل ، وقد أَرَبَ أَرابةً وأَرَبًا ، صار أَرَبِيًّا ، والأرْب من أَرَبت العُقْدَة أَرَبًا ، شدتها . يستميل : يستنزل ويدعوه أن يميل إليه . يستخلص مرضيه ، أى يحوزها لنفسه . ومراضيه : ما يُرضى القاضى ويوافقه ، وهو جمع مَرَضَاة ، ويقال : صلة الرحم مَرَضَاة للربِّ ، أى يرضيه برّها ، يقول :العاقل إذا دخل بلدة استعطف قاضيها لنفسه ، بحسن خلقه حتى يخفّ عليه أمره . ليشْتدّ : ليتقوى . جَوْر : ظُلم ، إماماً : قُدوة ، زماماً : حبلاً أقودها به . ولجت : دخلت . عرينة : بلدة ، وأصاها بيت الأسد . الراح : اسم الحجر ، وأبهم على ابن الرومى ممّ اشتق اسمها حين قال :

والله ما أدري لأية علة يدعونها في الراح باسم الراح
ألريحها أم روحها تحت الحشا أم لارتياح نديمها للرتاح !

وانظر الامتزاج الذى ذكر فى الخامسة والأربعين .

عنايته : اعتناؤه به واهتمامه .

فبينما أنا عند حاكم الإسكندرية ، فى عشيّة عريّة ، وقد أخضرت مال الصدقات ، ليُفضّه على ذوى الفاقات ، إذ حلّ شخصٌ عريّة ، تمثله امرأةٌ مُصيبةٌ فقالت : أيد الله القاضى ، وأدام به التراضى ، إني امرأةٌ من أكرم جرثومة ، وأطهر أرومة ،

وَأَشْرَفِ خُثُولَةٍ وَعَمُومَةٍ ، مَيْسَمِي الصَّوْنِ ، وَشَيْمَتِي الْهَوْنِ ،
 وَخُلِقِي نِعْمَ الْعَوْنِ ، وَبَيْنِي وَبَيْنَ جَارَاتِي بَوْنٌ ، وَكَانَ أَبِي إِذَا خَطَبَنِي
 بُنَاةَ الْمَجْدِ ، وَأَرْبَابُ الْجَدِّ ، مَسْكَتَهُمْ وَبَكَّتَهُمْ ، وَوَفَّ
 وَمُضَلَّتَهُمْ وَصَلَّتَهُمْ ، وَاحْتَجَّ بِأَنَّهُ عَاهَدَ اللَّهُ بِحِلْفَةٍ ، أَلَّا يُصَاهِرَ
 غَيْرَ ذِي حِرْفَةٍ .

[ذكر الإسكندرية]

مدينة عظيمة من بلاد مصر ، بناها الإسكندر ذو القرنين ، وهو الذي
 مشى مشارق الأرض ومغاربها . قال السديّ : لما سأل أهل الكتاب النبيّ
 صلى الله عليه وسلم عن ذى القرنين ، قال : سأخبركم كما تجدونه مكتوباً عندكم :
 إنَّ أول أمره أنه غلام من الروم ، أُعْطِيَ مُلْكًا ، فسار حتى أتى ساحل البحر
 من أرض مصر ، فابتنى عندها مدينة يقال لها الإسكندرية .

وقال الهمذانيّ : ذو القرنين ينسب إليه التاريخ قبل الإسلام ، ومؤدّبه
 أرسطاطاليس الحكيم ، وكان مُلْكُهُ الذي بلغ فيه أقصى المشرق والمغرب خمسة عشر
 عاماً ، والإسكندرية لما بناها رخمها بالرخام الأبيض جدُّرها وأرضها ، فكان
 لباسهم فيها السواد من نضوع بياض الرخام ، وإذا كانت ليلة مقمرة يُدْخِلُ
 الخياط الخياط في خرّق الإبرة من بياض رخامها .

وقيل : إنَّها مكثت سبعين عاماً لا يدخلها أحد إلا وعلى بصره خرقة سوداء
 من بياض جِصِّها ورُخامها ، ولم يحتج لها في تلك المدة إلى سراج بالليل من
 ضيائها . وقيل : كانت ثلاث مدن يحيط بجميعها سور .